# أخطار أفاطلقوا على قلعة

## بلشواردي سوسا يهاجم البحرين بثمانمائة

كان البرتغاليون من أبرز القوى فى القرن السادس عشر التى حاولت احتكار طرق الملاحة الى الشرق الأقصى . وقد تبع ذلك محاولة استعمار المناطق الواقعة على هذه الطرق ولم تكن المسألة سهلة بالنسبة للبرتغاليين الذين ووجهوا بمقاومة القوى المحلية من ناحية والقوى الكبرى المنافسة وذات النفوذ فى الخليج العربى من ناحية أخرى ، وعبر سلسلة من الحروب اعتمد فيها البرتغاليون على سفنهم الضخمة المزودة بالمدافع الثقيلة تمكنوا من استعمار بعض المناطق على شاطىء الخليج .. وفى هذا النطاق دخلت البحرين ضمن تاريخها الطويل مرحلة يمكن أن نطلق عليها مرحلة النفوذ البرتغالى .

# البحرين العربية اسم قلعة البرتغال

## مقاتل فيعود مهزوما بخمسة وثلاثين جريحا

ولابد لنا ونحن نكتب عن تاريخ النفوذ البرتغالى فى البحرين أو عن البحرين فى العهد البرتغالى ـ اذا جاز لنا ذلك ـ أن نتعرض لتاريخ النفوذ البرتغالى فى الخليج بعامة . وذلك لأن التغلغل الأجنبى فى هذه المنطقة من العالم ، كان يستهدفها ككل ولا يستهدف دولة منها بصفة خاصة . هـذا من ناحيـة ، ومن نـاحيـة أخـرى للترابط الشديد الذى كان يسود المنطقة فى ذلك التـاريخ والذى كـان يجعـل من حـدودهـا خـطوطا متحـركـة امتـدادا وانكماشا بصـورة مستمرة تحت تـأثير العـوامـل السيـاسيـة والعسكـريـة والتغييرات التى كانت تطرأ على موازين القوى العالمية أو المحلية فى ذلك الوقت . وما دمنا فى البداية بصـدد الحديث عن النفوذ البرتغالى فى الخليج فاننا نستطيع أن نقول ان هذا النفوذ بدأ منذ بدايـة القـرن السـادس عشر واستمـر حتى منتصف القرن السابع عشر الميلادى .. ففى سنـة ٩٠٣/هـ/١٤٩٧م/ حيث كانت حركة الاكتشافـات الجغرافيـة فى أوج نشـاطها ، أبحـر الملاح البـرتغالى المستكشف الشهير ( فاسكودى جاما ) من ليشبونه عـاصمة البـرتغال متتبعـا طريق سلفـه المـكتـشف البـرتـغـالى ( بارتلوميو ديـاز ) الذي اكتشف رأس الرجـاء الصالح بجنـوب افريقيـا وقـد استهـدف دى جـامـا بـرحلتـه اكمـال اكتشـاف الطريق الى الهنـد ودراسـة السـواحـل التى تـطل عليهـا الدولة الاسلامية ودار فاسكودى جـاما حـول الطرف الجنوبى للقارة الافريقية والتقى على الساحل الافريقى الشرقى بالمـلاح

العربى الكبير احمد بن ماجد[1] الذى ارشده على الطريق الى كاليكوت فى الهند سنة ٩٠٤هـ/١٤٩٨م .

كان الهدف الذى انطلق من أجله فاسكودى جاما يحدد استراتيجية البرتغال فى المنطقة ويوضح اطماعها ، فبعد هزيمة المسلمين فى الاندلس امام العنف الصليبى اتجه تفكير البرتغال الى مواصلة العمل على تقويض هذه الامبراطورية الضخمة واقامة امبراطورية برتغالية على أنقاضها فى الشرق تسوقها فى ذلك النزعة الصليبية التى كانت تسيطر على افكار البيوت الحاكمة فى أوروبا ويشجعها عليه تفوقها فى الملاحة وامتلاكها للسفن العملاقة التى يمكنها اقتحام أعالى البحار . ولكن اذا كان الدافع الأول صليبيا فقد أضيف اليه دافع آخر أو دوافع فبعد رحلة فاسكودى جاما للمنطقة ومن خلال التقارير التى أخذ يرسلها لحكومته تحول الهدف الصليبى الى هدف اقتصادى اثاره ما تتمتع به المنطقة من ثروات وما كانت عليه التجارة العربية النشطة فى الخليج من رواج ثم احتكار العرب المسلمين لخطوط التجارة بين الشرق الأقصى وأوروبا واتجهت البرتغال الى العمل على الاستفادة من ثروات المنطقة وانتزاع طريق التجارة من يد العرب ومن هذه الزاوية يمكننا أن نقول دون مغالاة ان النفوذ البرتغالى الذى جاء للمنطقة متلفعا بمسوح الرهبان تحول الى سفاح شره وكان هو السبب فى فتح عيون أوروبا على ما تتمتع به المنطقة من خير وثروات مما كان السبب المباشر لما تلا ذلك من هجمات أدت بدورها الى موجة الاستعمار الذى جثم على المنطقة حتى سنوات قليلة خلت .

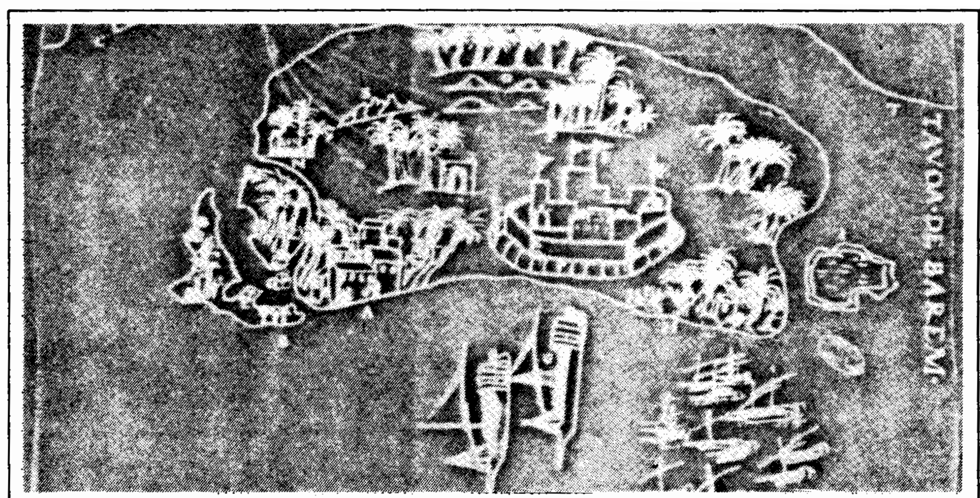
ازاء كل ذلك نشطت البرتغال بصورة غير عادية فى تقوية اسطولها البحرى وبدأ الاتجاه لمد النفوذ البرتغالى الى المحيط الهندى والخليج العربى وسواحل الجزيرة العربية وقد نجحوا فى ذلك الى حد بعيد خاصة بعد أن ساعدتهم مجموعة من الظروف السياسية والاقتصادية السائدة وقتذاك .

أما الدوافع التى دعت البرتغاليين للاتجاه الى المنطقة فكانت :

**أولا** : تفوقهم فى الملاحة وركوب البحر نظرا لوقوع بلادهم على ساحل المحيط الاطلسى مما جعلهم يبرعون فى صناعة السفن وساعدتهم الاكتشافات الجغرافية التى ساهموا فيها بنصيب ملحوظ على معرفة المسالك والممالك .

**ثانيا** : الدوافع الصليبية فقد كانت

(١) احمد بن ماجد بن محمد السعدى النجدى من اهل نجد وقد أطلق عليه القاب شهاب الدين والمعلم واسد البحر وابن ابى الركائب ( والسائح ماجد ) وهو من كبار ربابنة العرب فى البحر الأحمر وخليج البربر والمحيط الهندى وخليج بنجالة وبحر الصين ومن علماء فن الملاحة وهو الربان الذى أرشد قائد الاسطول البرتغالى فاسكو دى جاما فى رحلته من مالندى على ساحل افريقيا الى كلكتا فى الهند عام ١٤٩٨م فهو أحرى بلقب مكتشف طريق الهند وذكر برتن الانجليزى ان بحارة عدن سنة ١٨٥٤م كانوا اذا أرادوا السفر قرأوا الفاتحة للشيخ ماجد مخترع الابرة المغناطيسية والمراد بالشيخ ماجد أحمد بن ماجد وقد توفى بعد ٩٠٤هـ ـ ١٤٩٨م ( الاعلام للزركلى ) ج ١ ص ٤٠٠



**خريطة برتغالية للبحرين فى القرن السادس عشر الميلادى وتظهر فيها قلعة البحرين كما يوجد الى اليمين صورة لبعض القبور المقببة**

الحروب الصليبية قريبة عهد وكانت فكرة غزو ديار المسلمين تسيطر على العقول الأوروبية وان كان هذا الدافع ينطوى على دافع اقتصادى مكن قادة الحملات الصليبية من حشد المقاتلين والبحارة الذين كانوا يطمعون فى الحصول على ثروات الشرق .

**ثالثا** : المنافسة بين الدول الكبرى وقتذاك وتسارعها وتصارعها الاحتكار طرق التجارة وتأمينها عن طريق الاستيلاء على المناطق التى تهددها ولتوفير الرخاء لشعوبها باجتلاب أهم السلع المتوافرة فى الشرق سواء فى التوابل أو البخور أو المنسوجات أو الأخشاب أو القوى العاملة للعمل فى المزارع مثل الرقيق .

ومع هذه الدوافع فقد ساعدت البرتغاليين مجموعة من الأسباب كانت تمثل الواقع السياسى والاجتماعى والاقتصادى للمنطقة فى ذلك الحين منها :

**أولا** : انقسام القوى العربية سياسيا نتيجة لخلافاتها المذهبية والقبلية وتطاحنها فيما بينها مما هيأ للبرتغاليين فرصة احتلال أجزاء من هذه المناطق أصبحت بمثابة قواعد برية فتحت شهيتهم للتوسع فيما جاورها .

**ثانيا** : نجاح الحصار الاقتصادى الذى فرضته السفن البرتغالية على السواحل العربية مما أضعف القوى العربية واضطرها لدفع الرسوم والضرائب للبرتغاليين وهو الأمر الذى أتاح لهم ضم بعض الدول فى المنطقة بسهولة وييسر يساعدهم فى ذلك عدم التعاون بين هذه الدول وهو التعاون الذى كان يمكن أن يساعد العرب فى فك الحصار لو انهم قاموا بشغل الاسطول البرتغالى على أكثر من ساحل أو الاستفادة من السواحل الأخرى التى لا يسيطر عليها هذا الاسطول .

**ثالثا** : التحالف الذى نجح البرتغاليون فى اقامته مع الفرس ضد الأتراك العثمانيين والعرب الموالين لهم ، يؤكد ذلك ما كتبه افونسو دى البوكيرك ) الى شاه فارس فى ٩١٥هـ/ ١٥٠٩م فقد جاء فى رسالته قوله « اننى أقدر لك احترامك للمسيحيين فى بلادك وأعرض عليك الاسطول والجند والأسلحة لاستخدامها ضد قلاع الترك ..» واذا أردت أن تنقض على بلاد العرب أو تهاجم ( مكة ) فستجدنى بجانبك فى البحر الأحمر أمام ( جدة ) أو فى ( عدن ) أو فى ( البحرين ) أو ( القطيف ) أو ( البصرة ) وسيجدنى الشاه بجانبه على امتداد الساحل الفارسى وسأنفذ له ما يريد .[٢]

وهذه الرسالة نفسها تعطى صورة عامة عن المناطق التى كانت فى متناول الاسطول البرتغالى والتى كانت تمتد من البحر الأحمر الى عدن الى سواحل الخليج العربى شمالا حتى البصرة .. كما تؤكد الذريعة التى كان البرتغاليون يتخذونها فى هجماتهم بالشرق وهى الذريعة التى تنبع من منطلقات صليبية .

هذه الظروف والدوافع والأسباب وغيرها جعلت البرتغاليين يدفعون بالقائد البرتغالى (افونسو دى البوكيرك) نحو الخليج فى ٩١٢هـ/ ١٥٠٦م . فاستولى فى البداية على جزر ( كوريا موريا ) الواقعة جنوب شرقى ( ظفار ) على سواحل البحر العربى وهناك أحرق السفن الراسية حول الجزر ثم استولى على ( قلهات ) وأشعل النار فى سفنها ثم اتجه الى ( قريات ) وووجه بمقاومة عنيفة من أهلها الا ان البرتغاليين استطاعوا اقتحام الميناء ودخول المدينة رغم التضحيات الجسيمة التى قدمها عرب مسقط للدفاع عن مدينتهم ضد الغزاة .

وفى مسقط قدم البرتغاليون صورة تدل على اسلوبهم وهى الصورة التى تدمغ الاستعمار البرتغالى بأنه من أسوأ أنواع الاستعمار فى التاريخ الحديث فقد عرف هذا الاستعمار بقسوته وعنفه تجاه الشعوب فى الدول التى احتلها فكانوا ينهبون المدن ويدمرون الموانىء ويحرقون السفن ويهدمون المساجد والمعابد ويجدعون أنوف المواطنين ويقطعون آذانهم ويفتكون بالنساء والأطفال وكان ( افونسو دى البوكيرك ) يشرف بنفسه على المجازر الرهيبة فى موانىء البلاد العربية بدافع صليبى استعمارى ومن ورائه ملك البرتغال ( عمانويل الأول ) .

وبعد أن فتك البرتغاليون بأهل مسقط وعصفوا بالمدينة حرقا ونهبا وقتلا . حرقوا مسجدها وأشعلوا النار فى سفنها . ثم اتجه البوكيرك الى مدينة ( صحار ) ٩١٣هـ/ ١٥٠٧م فاحتلها ويذكر البوكيرك انه عندما وصل أمام صحار سنة ١٥٠٧م كانت قد وصلت اليها نجدات تتألف من ٧ آلاف مقاتل يقودهم ابن جبر[٣] وقام البوكيرك

---

( ٢ ) الخصوصى : د. بدر الدين عباس . ( دراسات فى تاريخ الخليج العربى الحديث والمعاصر ) جـ ١ ص ١٨ . وصلاح العقاد ( التيارات السياسية فى الخليج العربى ) ص ١٧ و Miles, The countries and, tribes P. 145 — 150, Belagrave, The Pirate coast P.P. 6.33

( ٣ ) الحميدان ص ٧١

بفرض ضريبة عليها وكانت قبل ذلك تدفعها لملكة ( هرمز ) وبذلك استطاع البرتغاليون السيطرة على مدخل الخليج العربى واتجهوا بعد ذلك الى ( هرمز ) . وكان أهلها قد استعدوا للغزو . ولكن قبل أن يبدأ الهجوم على هرمز وقعت حركة تمرد بين ملاحى البوكيرك فقد تعب الجنود من المعارك السابقة والتى جاءت متلاحقة بالاضافة الى انهم أرادوا التمتع بالثروات الكبيرة التى جمعوها من احتلالهم لبعض أجزاء الهند والتى استولوا عليها من معاركهم فى مسقط وصحار خاصة ومعظمهم خرجوا من البرتغال أملا فى البحث عن الثروة . ولكى يكسب ( البوكيرك ) الوقت فقد بدأ بالتفاوض مع ملك هرمز ووزيره ( خوجة عطار ) وساعدته عملية التفاوض على أن يختبر قوة هرمز من ناحية ومن ناحية أخرى أتاحت له الوقت اللازم للقضاء على التمرد بين جنوده وتنظيم قواته . وعندما وصلت المفاوضات بعد ذلك الى طريق مسدود . كان البوكيرك قد جمع صفوفه ليشن هجوما بحريا عنيفا أسفر عن هزيمة هرمز فى ٩١٣هـ/١٥٠٧م ووقعت اتفاقية بين الجانبين فرضت بمقتضاها على هرمز غرامة حربية وضريبة سنوية تدفعها للبرتغاليين بالاضافة الى اعفاء البضائع البرتغالية من أى رسوم جمركية . وكان هذا هو أول احتلال لهرمز من قبل البرتغاليين .

وبقى ( البوكيرك ) فى هرمز لمدة عام اتجه بعده الى الهند ليواجه هناك بغضب ( دالميد ) وهو نائب ملك البرتغال الحاكم .. وكان الخلاف بين الرجلين قد تفاقم نظرا للمعارك التى دخلها ( البوكيرك ) فى الخليج والتى اتخذ قرارها دون استشارة نائب الملك الذى يعتبر المسئول الأول عن القوات البرتغالية فى الشرق وكان الرجلان يختلفان فى الأهداف ( فدالميد ) كان هدفه السيطرة على طريق التجارة للهند والحصول على ثروات هذه القارة ومن أجل ذلك عينه الملك عمانويل نائبا له هناك أما ( البوكيرك ) فكانت تسوقه نزعة صليبية عنيفة واحلام فى اقامة امبراطورية عريضة بالشرق وهو الهدف الذى جعله يتحالف مع ( الشاه ) الفارسى للقضاء على العثمانيين والعرب ومهاجمة مكة كما سبق . وبعد عودة البوكيرك للهند قرر نائب الملك التحقيق معه فى تجاوزاته متخذا قسوته فى قمع التمرد بين بحارته ذريعة لذلك واشتدت حدة الخلاف بين الرجلين وهو الخلاف الذى حسمه الملك عمانويل الأول لصالح ( البوكيرك ) اذ عينه نائبا لملك البرتغال فى الهند وحاكما عليها فى ٩١٥هـ/١٥٠٩م وجعل ميناء ( جوا ) مركزا لحكومته .

وبعد تعيين ( البوكيرك ) نائبا للملك وحاكما للهند وقبل أن يتجه للتوسع فى غزوه للخليج كانت فى انتظاره مفاجأة لم تخطر على باله هذه المفاجأة كانت قيام دولة المغول فى الهند بهجوم على ( جوا ) نفسها مما شغل البرتغاليين عن مواصلة

الحرب على سواحل الخليج العربى والجزيرة العربية ورغم فشل الهجوم المغولى على ( جوا ) الا أنه جاء الى حلبة الصراع بقوة جديدة كان على البرتغاليين أن يحسبوا لها ألف حساب خاصة وهى تهدد خطوطهم الخلفية فى أى هجوم على الخليج وقد دفع ظهور هذا الخطر البرتغاليين لمحاولة القضاء على القوة العربية فى الخليج بسرعة وعنف خاصة والبوكيرك لم يكن يثق كل الثقة فى الاتفاقية المعقودة بينه وبين شاه فارس والتى كانت موجهة فى جوهرها ضد العرب بسبب تضارب المصالح بين الفرس والبرتغال والتى ظهرت فى احتلال البرتغال ( لهرمز ) التى كانت ترتبط بروابط مع فارس .

وفكر البوكيرك ان احتلال مصادر واسواق التجارة العربية فى الشرق الأقصى سيكون عنصرا فعالا ومساعدا فى القضاء على القوة العربية فى الخليج وتحطيم اقتصادياتها .. من أجل ذلك اتجه لاحتلال بعض مناطق الشرق الأقصى الا أنه فشل فى ذلك فعاد بقواته الى سواحل الخليج يسوقه حقده الصليبى كاشفا عن اتجاهه لتدمير مقدسات المسلمين فى مكة المكرمة واتجه فى طريقه الى عدن فاشعل النار فى سفنها الراسية بالميناء الا أنه لم يستطع ان يتقدم كثيرا صوب الحجاز وذلك لأن الدولة العثمانية والكثير من القبائل العربية المساندة لها هبوا جميعا للذود عن مكة المكرمة وحماية المقدسات الاسلامية بها فعادت حملة البرتغاليين خائبة الى الهند دون أن تتمكن من تحقيق أهدافها .

ولكن حملات البرتغاليين لم تتوقف ففى سنة ٩٢٠هـ ١٥١٤م انتهز البرتغاليون فرصة انشغال الفرس فى حرب مع العثمانيين وأرسل البوكيرك ابن عمه ( بيرو ) الى ( هرمز ) ووصل ( بيرو ) الى ( رأس كاديفو ) فصادف سفينتين تحملان حجاجا مسلمين فى طريقهم لأداء فريضة الحج بمكة المكرمة فأسرهما وقد نبه ذلك خمسين سفينة أخرى محملة بالحجاج فلجأت الى ميناء هرمز ونجت من السفن البرتغالية التى واصلت طريقها لاستطلاع جزر البحرين .

عند هذه النقطة لابد أن نرجع بالأحداث قليلا للوراء لمحاولة استطلاع الوضع فى هرمز باعتبارها عنصرا فعالا فى الصراع بالمنطقة فى ذلك الوقت ففى صيف ٨٢٠هـ/١٤١٧م قام سيف الدين مهار بالتمرد على أبيه قطب الدين فيروز شاه ملك هرمز وأرغمه على التنازل عن العرش وتعرضت هرمز للقلاقل والاضطرابات التى سببها الصراع على الحكم لكن الأمر استقر لسيف الدين مهار سنة ٨٣٩هـ/١٤٣٥م وبعد أن مات عادت القلاقل تجتاح هرمز وهى القلاقل التى ادت بدورها الى صعوبة تتبع الاحداث فيها بدقة وان كان تحليل الأخبار التى وردت وخاصة فى كتاب

وثمانين وثمانماية وهي في غاية العمارة وهي في تاريخ الكتاب لأجود بن
زامل بن حصين العامري اعطاه له هي والقطيف السلطان سرغل بن تورنشاه
ان يقوم بنصره على اخوته تملكه جزيرة جرون هرموز المتقدم ذكرها وكتب
له عليها حجة واستثنا بعض بساتينها ففعل له ذلك وقام بنصره وملكه جرون
واخذ البحرين والقطيف في عام ثمانين وثمانماية وقد اخذ ولد صيف بن زامل
عمان بن شهاب بالسيف على سليمان بن سليمان بن نبهان في عام ثلاثة وتسعين
وثمانماية وولى عليها امام من الاباضية يدفع له محاصيلها وقد نصروا اهلها
وقاموا بنصره فهدم جميع حصونها وأمّر عليهم عمر بن الخطاب الاباضي الجزيرة
التاسعة هي جزيرة ابرخت وان تعرف بجزيرة برخت والقشم لان القشم محلة
في راس الجزيرة من المشارق والشمال مما يلي هرموز وهي تفتح مسلك الطين
هرموز وبرخت متوسطة في الجزيرة محلة فيها النخيل والزروع والدواب
وفيها خمسماية حايك يحوكون الحرير وراسها من المغارب المسمى بسميكا العرب
والعجم وفيها خلق وفيها مراكب وزروع وبلدان بجميع ذلك وهي جزيرة
معترضة على لنامات سواحل فارس فيها الفواكه والكروم والبطيخ والحنطة
من جميع الاجناس الجزيرة العاشرة وهي سقطرة وهي جزيرة عظيمة قريبة
التعريف اصغر من الجزاير المتقدم ذكرها طولها وعرضها قريب خمسين فرسخا بل
انهم فيها الامن كل مكان وهي على مشارق بر الشومال تسكنها اهل النصارى
وتسكنها بقية اليونان ذكرها عمر بن ايوب بن شاهنشاه مصنف كتاب تقويم
البلدان وفيها خلق كثير قريب عشرين الف ادمي وقد ملكوها من قديم الزمان

**صورة النص الوارد فى كتاب الملاح العربى الشهير احمد بن ماجد ( الفوائد فى اصول علم البحر والقواعد ) وفيها يقول عن البحرين .. وهى فى غاية العمارة وهى فى تاريخ هذا الكتاب لأجود بنه زامل بن حصين العامرى .**

الرحالة العربى أحمد بن ماجد[٤] يستنبط منها أن أحد ابناء البيت المالك واسمه سرغل بن نور شاه طلب معونة زعيم الجبور فى ذلك الوقت أجود بن زامل

( ٤ ) الفوائد فى اصول البحر والقواعد ص ٦٩ .

# صورة البطل العربي علي

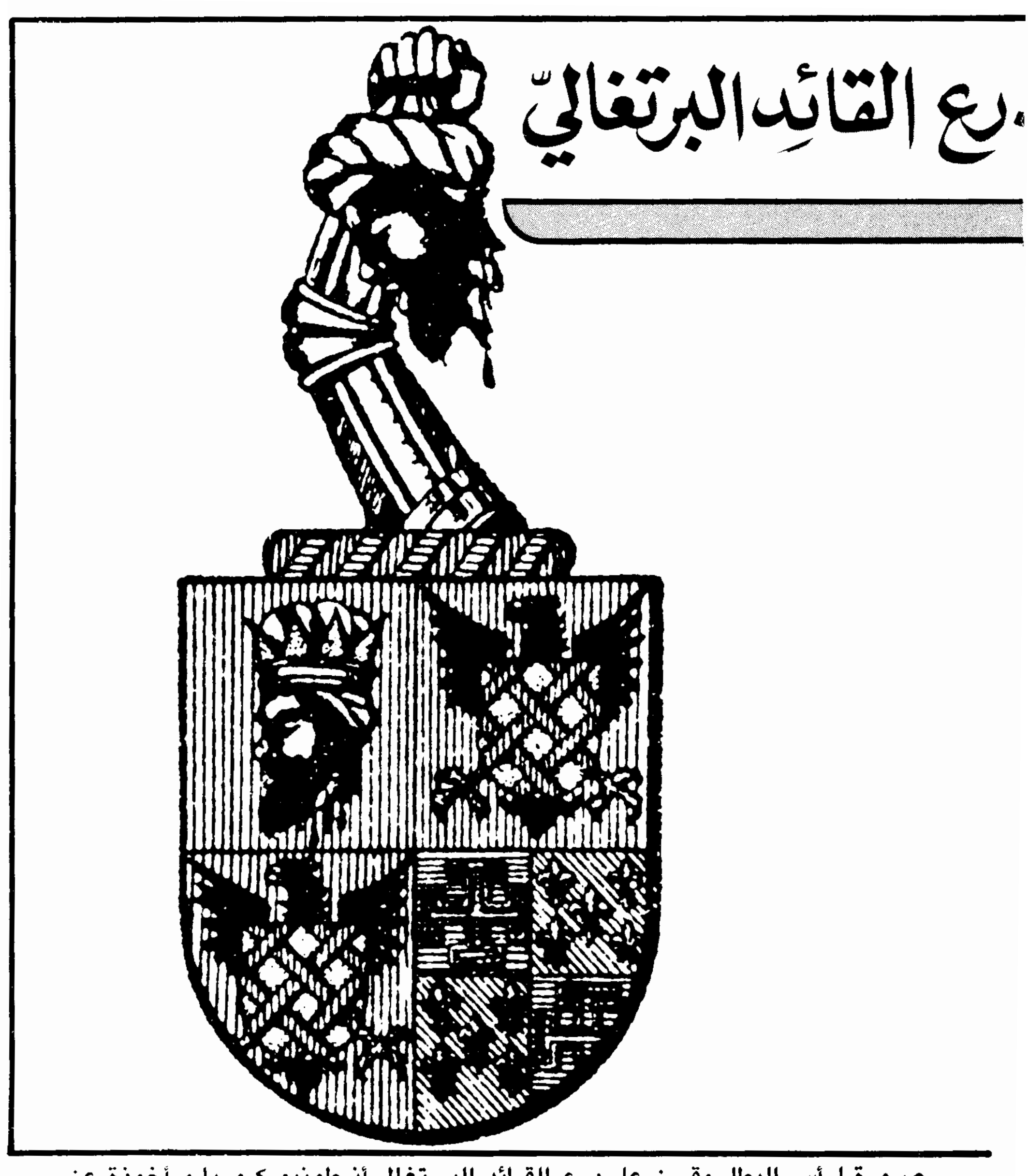
وأنه عرض عليه فى مقابل مساعدته ضد اخوته ملك البحرين والقطيف واستثنى من ذلك بعض البساتين فى البحرين اشترط أن يرسل أجود عائدها الى هرمز سنويا وقد وافق اجود على ذلك وزوده بالسفن والمال وذلك سنة ٨٨٠هـ/١٤٧٧م فاذا جاءت سنة ٩٢١هـ/ ١٥١٥م نجد أن ملك هرمز أصبح لتوران شاه وهو أخو سيف الدين مهار وكان حاكما لهرمز على قلهات ويطلق عليه البرتغاليون « رئيس توارسا » ونجد أن القلاقل قد عادت الى هرمز مرة ثانية لدرجة أنه القى القبض على توران شاه وسجن فى احدى القلاع وهنا تبرز عدة احتمالات منها احتمال طلب توران شاه المعونة من البرتغاليين .

واحتمال أن هذه القلاقل نفسها جذبت البرتغاليين الى هرمز وشجعتهم على اعادة الهجوم عليها نظرا لما تخلقه الخلافات من الضعف يؤيد ذلك أن الاسطول البرتغالى كان فى ذلك الوقت فى مرحلة استطلاع المنطقة بحثا عن نقطة ضعف يضع عليها البرتغاليون اقدامهم ويتخذونها قاعدة للأنطلاق منها الى مناطق أخرى فى الخليج .. وأيا ما كان السبب فأن البوكيرك اسرع الى هرمز هذه المرة بأسطول من ٢٧ سفينة وأطلق مدافعه على القلعة فاستسلمت حاميتها وأطلقوا سراح توران شاه . بعد ذلك عقدت اتفاقية بين توران شاه والبرتغاليين يدفع توران شاه بموجبها ضريبة سنوية قدرها ١٥ ألف أشرف ويعادل الاشرفى الواحد ١٠٠ وقيل ٣٠٠ ريال أما القلعة فقد أوكل حكمها الى قائد برتغالى .

كانت المعركة بين الفرس والعثمانيين قد انتهت لصالح العثمانيين فى سنة ٩٢٠هـ/ ١٥١٤م واستطاع العثمانيون أن ينتزعوا من الفرس عاصمتهم تبريز فى معركة جالديران التى وقعت فى نفس السنة وهنا ظهر فى الموقف ظروف جديدة حددت مسار الأطماع التى تداعب خيال القوى الكبيرة والمتواجدة بالمنطقة .

فبالنسبة للشاه اسماعيل الصفوى فقد ادى استيلاء العثمانيين على اجزاء كبيرة من دولته الى اتجاهه للساحل الآخر للخليج فى محاولة لاستعادة الثقة بالاستيلاء على مناطق جديدة يعوض بها ما فقده واتجه تفكيره الى البحرين والقطيف ولكنه لم يكن يملك السفن اللازمة لمثل هذه الحملات البحرية .

وبالنسبة ( لافونسو دى البوكيرك )




صورة لرأس البطل مقرن على درع القائد البرتغالى أنطونيو كوريا مأخوذة عن المصادر البرتغالية وموجودة بمركز الوثائق التاريخية فى البحرين

فقد أدى توقف البحرين عن دفع عائد بعض العقارات لهرمز فى البحرين وهو العائد الذى نص عليه الاتفاق بين توران شاه وأجود بن زامل وذلك بعد أن أصبحت هرمز شبه خاضعة للبرتغاليين خاصة وهى تمثل قاعدة تجارية هامة بالاضافة الى مساعدة البحرين لهرمز بالرجال والمال لمقاومة النفوذ البرتغالى .. قدم كل ذلك الذريعة للبوكيرك كى يتجه تفكيره الى البحرين .

واحتلالها يساعده على تحقيق هدفه الكبير فى تحطيم قواعد وطرق التجارة العربية فى الخليج . ولكنه كان فى حاجة لبعض الوقت حتى ينظم قواته .

وازاء هذا الموقف الجديد فقد مال الشاه اسماعيل الصفوى شاه فارس الى اعادة دعم التعاون مع البرتغاليين وساعده على ذلك أن فارس أغمضت عينيها عن الهجوم البرتغالى على هرمز . وأرسل الشاه سفيرا الى البوكيرك لبحث اسس التعاون الجديد فتعهد البوكيرك لسفير الشاه بالتعاون معه لاحتلال البحرين والقطيف وأن يقدم البرتغاليون السفن الحربية اللازمة لذلك وعندما اطمأن الشاه الى وعود البوكيرك كان الأخير يجهز اسطوله ويعد قواته . وبينما كان الشاه الصفوى يحلم بأنه سوف يعوض سقوط تبريز باحتلال البحرين . كان البوكيرك يرسل سفنه بالفعل لاحتلال البحرين ولكن لحساب البرتغاليين .

## مقرن بن زامل الجبرى

لابد لنا قبل أن نعرض لخطوات غزو البرتغاليين للبحرين أن نعرض بقدر ما يتيحه الممكن لشخصية كان لها أثر كبير على سير الأحداث فى تلك الفترة هذه الشخصية هى شخصية مقرن بن زامل الجبرى أحد أبرز حكام امارة الجبور .. وأول ما يطالعنا عند التصدى لهذه الشخصية هو الغموض الشديد الذى يكتنف تفاصيل حياتها وان كانت الشذرات المتناثرة فيما أمكن الحصول عليه من الوثائق تشير بصورة واضحة الى ان مقرن كان خصما عنيدا للبرتغاليين كما تشير ـ وان كان ذلك من بعيد ـ الى اتجاه ملحوظ فى سياسته يتركز فى اتجاهين الأول رفض التدخل الأجنبى والتصدى له بقوة وعنف والثانى محاولة ايجاد جبهة عربية للتصدى للبرتغاليين ومحاولة جمع الصف .. وربما كان موقف مقرن وبطولته هما السبب فى ان الوثائق البرتغالية التى تعتبر أحد المصادر الرئيسية للأحداث فى تلك الفترة قد تجاهلت تفاصيل أعماله وان كان هذا لا يمنع من ان البرتغاليين اعتبروا هزيمة مقرن والقضاء عليه نصرا ضخما استحق صاحبه وهو القائد البرتغالى انطونيو كوريا التكريم والاجلال لدرجة انه سمح له أن يحفر صورة رأس مقرن على درعه كدليل على الفخر بأنه قاهر السلطان مقرن ـ وهى الصورة الوحيدة التى عرفت لهذا البطل العربى وتوجد نسخة منها بمركز الوثائق التاريخية بالبحرين نقلا عن الكتب البرتغالية ـ هذا الى جانب ما نسخ حوله من أساطير .

ومن العلامات التى قد تشير الى صلابة هذا البطل العربى ان البرتغاليين لم يكتفوا بالقضاء عليه وانما طاردوا السفينة التى تحمل جثمانه واحتزوا رأسه وحملوه لعرضه على من يعرفه وكأنما لم يصدقوا انهم تمكنوا من قهره .

ويستفاد من المصادر التى تعرضت لتاريخ الجبور ان السلطان مقرن أصبح أميرا على البحرين والقطيف فى النصف الأول من القرن السادس عشر الميلادى وانه تمكن ببطولته من صد بعض الهجمات التى استهدفت البحرين مثل هجوم « خواجة عطار » عم ملك هرمز ووزيره الذى هاجم البحرين ٩١٧هـ/١٥١١م(٥) وان ذلك أدى لذيوع صيته ووصفه ابن اياس بأنه ملك من البحرين الى هرمز وانه أمير عربان بنى جبر .. ولكى يقوى مقرن نفوذه فقد أصهر الى شريف مكة ( بركات ) اذ تزوج الشريف ابنه مقرن وان كانت بعض المصادر البرتغالية تقول ان مقرن هو الذى تزوج ابنة شريف مكة كما ان أخت مقرن تزوجت من شيخ قبيلة بنى خالد ( أو ابن شيخها لأن فى نسب بن خالد بن حميد أو حميدى(٦) وهذا قد يفسر تولى الشيخ ( حميد ) ابن أخت مقرن لحكم البحرين والقطيف فى غضون هذه الفترة .

## غزو البرتغاليين للبحرين

رأينا فيما سبق كيف أن البرتغاليين بعد أن قام مكتشف برتغالى هو بارثلوميو دياز باكتشاف رأس الرجاء الصالح وبعد أن قام برتغالى اخر هو فاسكو دى جاما باكتشاف بقية الطريق الى الهند ، يعتبرون انفسهم أصحاب الحق فى احتكار التجارة مع الهند والشرق الاقصى . ورأينا كيف دفعهم ذلك الى التفكير فى اقامة امبراطورية برتغالية فى الشرق وكيف أنهم بدأوا فى تحقيق أحلامهم الصليبية حتى يظهروا أمام القوى الأوروبية الأخرى بأنهم انما انطلقوا لنشر المسيحية ولسحق الامبراطورية الاسلامية لتغمض هذه القوى عينيها عن أهدافهم الحقيقية من ناحية وحتى يحصلوا على مباركتها من ناحية أخرى ، ثم رأينا كيف أن البرتغاليين ووجهوا بعقبة كبيرة اعترضت طريق اطماعهم وتمثلت فى الاساطيل التجارية العربية والتجارة العربية النشطة فبدأوا العمل على ازاحة هذه العقبة . وكيف أنهم حطموا أسطول عدن وحاولوا الهجوم على مكة والاستيلاء على الجزيرة العربية التى تعتبر عمقا كبيرا للقبائل العربية المقيمة على سواحل الخليج . الا أن وقفة الدولة العثمانية والقبائل العربية صدتهم عن هدفهم وعن تحقيق مجد صليبى استهدفوا به الوقوف موقف البطولة فى عيون أوروبا . وكيف أنهم اتجهوا بعد ذلك للاستيلاء على اسواق التجارة العربية فى الشرق الأقصى الا أنهم فشلوا أيضا فى ذلك وفى

---

( ٥ ) الحميدان ص ٧١ .

( ٦ ) الحميدان ص ٧٧ .

النهاية حددوا معركتهم في الخليج نفسه . ووضعوا استراتيجيتهم على أساس الاستيلاء على القواعد التجارية العربية نفسها في الخليج . ولما كانت المواجهة المباشرة مع الفرس غير مجدية فقد اكتفوا باحتلال هرمز على الساحل الشرقي للخليج وساعدتهم الظروف الجديدة في انشغال الخلافة العثمانية التي تتبعها بعض ولايات الخليج في حربها مع الفرس على الاتجاه نحو الساحل الغربي . والعمل على احتلال البحرين وقد جاء التوجه البرتغالي للبحرين بالاضافة الى ماسبق ذكره من الدوافع السياسية والعسكرية التي كانت تحدد خطوات البرتغاليين نتيجة مجموعة أخرى من الأسباب خاصة بموقف البحرين نفسه في تلك الفترة وهو الموقف الذي كان يتعارض بل ويهدد التغلغل البرتغالي في الخليج من هذه الأسباب :

● سياسة الجبور الذين كانوا يحكمون البحرين في هذه الفترة واتجاههم الى مساعدة المناطق المجاورة على مواجهة الغزو البرتغالي وميلهم الى ايجاد نوع من المقاومة الجماعية لهذا الخطر الخارجي .

● مساعدة الجبور ( لصحار في عمان ) عند تعرضها للهجوم البرتغالي كما انه في سنة ١٥٠٧ م/٩١٣ هـ ارسل « ابن جبر »[٧] نجدات لميناء مسقط تتكون كما ذكر البوكيرك نفسه من سبعة الاف رجل يقودهم ابن جبر

● امداد البحرين لهرمز بالرجال والمال لمقاومة البرتغاليين وان كان البرتغاليون قد تصدوا لسفن البحرين المحملة بالمقاتلين والمؤونة قرب جزيرة القشم وفرقوها بعد معركة شديدة .

● بعد استيلاء البرتغاليين على هرمز واقامة ( توران شاه ) ملكا عليها من قبلهم توقفت البحرين التي كانت تحت حكم السلطان ( مقرن الجبري ) عن دفع عائد البساتين المتفق عليها لهرمز ولما فشلت هرمز في اعادة فرض السيطرة على البحرين والقطيف لجأ ( توران شاه ) الى البرتغاليين وتذكر المصادر البرتغالية أن ( توران شاه ) اعتذر للبرتغاليين بعجزه عن دفع الضرائب لأن السلطان ( مقرن ) لا يدفع له عائد بعض البساتين بانتظام وأنه يتعرض للسفن بين هرمز والبصرة كرد على مضايقات البرتغاليين والهرمزيين لتجارة الجبور .

يضاف الى هذه الاسباب ما كانت تتمتع به البحرين في ذلك الوقت من ثروات فتذكر المصادر البرتغالية ان البحرين وقتذاك كانت تضم جزيرة كبيرة غنية بالمياه العذبة والخضروات والاشجار الباسقة وغنية بالجواهر ومغاصات اللؤلؤ ومصايد الاسماك وان

( ٧ ) أجود بن زامل بن حصين العامري ـ انظر مخطوط ابن ماجد ص ٧٠ .

# سؤال مطروح للباحثين :

# من هو الشيخ الكابتن اسماعيل؟

سكانها وهم من القبائل العربية كانوا يبيعون اللؤلؤ للتجار الذين ينقلونه بدورهم الى بلاد الهند وفارس والبلاد العربية الاخرى فيدر على البحرين أرباحا طائلة .

ازاء هذا الظرف اتخذ الغزو البرتغالى وجهته الى البحرين وقد سبقته بعض المقدمات منها :

● اتجاه البرتغاليين فى سنة ٩١٥ هـ/١٥٠٩ م الى مهاجمة تجارة البحرين فنهبوا سفينة فى مياه الخليج كانت قادمة من البحرين وعليها حمولة من اللؤلؤ .

● قيام (خواجه عطار) عم ملك هرمز فى سنة ٩١٧ هـ/١٥١١ م بالاستيلاء على البحرين ولكن الجبور أرغموه على الانسحاب بعد فترة قصيرة .

● بعد ذلك اتخذ البرتغاليون خطوة أخرى فى سنة ١٥١٤ م/٩٢٠ هـ أرسل البوكيرك ابن عمه بيرو ومعه اربع سفن لاكتشاف البحرين والتمهيد للغزو فرحل بيرو الى هرمز ومكث بها بعض الوقت ثم أبحر الى البحرين ولكن البرتغاليين فشلوا فى النزول الى البر وعللوا سبب فشلهم بالرياح التى عاكستهم (٨) .

فى هذه الاثناء كانت الامور قد اتضحت وظهرت الجبهات المتصارعة للعيان فمن ناحية هناك قوتان بدت مطامعهما فى الخليج والبحرين وهما البرتغاليون والدولة الصفوية فى فارس تحت حكم الشاه اسماعيل الصفوى من ناحية . والدولة العثمانية التى كانت فى حرب مع فارس والتى كانت حليفة للجبور من ناحية اخرى فما ان جاءت سنة ٩٢٦ هـ/ ١٥٢٠ م حتى كانت الاحداث قد اخذت شكلا أكثر وضوحا .

فى هذا العام سافر السلطان مقرن الى الحجاز لاداء فريضة الحج وقام مقامه فى

---

(٨) الحميدان ص ٧١ و ٧٨ .

الحكم ابن اخته الشيخ (حميد) .. وتذكر المصادر البرتغالية التى تعود الى فترة سابقة على هذه السنة - مجموعة من الاتصالات فتذكر ان الشاه اسماعيل اتصل بالبرتغاليين فى هرمز والهند من أجل اقامة تعاون مشترك ضد العثمانيين وانه قدم لهم بعض المطالب بواسطة سفيره احد هذه المطالب ان يقوم البرتغاليون بتأمين السفن التى تنقل رعاياه فيما بين هرمز والبحرين والقطيف وقد قبل البرتغاليون ذلك ولكنهم اشترطوا ألا يؤدى ذلك الى أى عمل يضر بأراضى مملكة هرمز أو بجزيرة البحرين (٩) وتستطرد المصادر البرتغالية فتقول بأنه تبودلت الهدايا بين الشاه اسماعيل والبوكيرك فأرسل الشاه اسماعيل سنة ٩٢٠ هـ/ ١٥١٤ م رسالة يطلب فيها صداقة البوكيرك والصلح مع البرتغال مع هدية كانت عبارة عن سيف له غمد من الذهب والفى زيرافين أشرفى .. ثم تذكر المصادر البرتغالية سفارة اخرى فتقول ان الشيخ الكابتن اسماعيل أرسل للبوكيرك سفيره (عبد الله خليفة) طالبا صداقته والتعاون معه وانه ارسل معه هدية عبارة عن خمسة خيول وسرجا من الذهب وبعض الملابس الموشاة بخيوط من الذهب وبضعة جمال محملة بالفاكهة وعصير عنب شيراز وكانت تلك أحسن ما فى البلاد كلها مع ثلاثمائة قطعة من الذهب وان هذه الهدية أخذت طريقها عبر الاحساء ثم ابحرت الى هرمز (١٠) .

وهنا لا بد من وقفة لمعرفة من هو اسماعيل فاذا كان هو الشاه اسماعيل الصفوى فكيف يكون سفيره (عبد الله خليفة) وهو عربى مع اننا نعرف ان البلاط الفارسى كان فيه شخص برتغالى على الاقل (١١) ذكرته المصادر البرتغالية وذكرت انه تولى السفارة بين الشاه والقائد البرتغالى وهو أمر منطقى ان يوجد برتغالى فى البلاط الصفوى يجيد الفارسية والبرتغالية .

شىء اخر هو الطريق الذى اتخذته احدى الهديتين فالمصادر تذكر ان احداهما أخذت طريقها عبر الاحساء ثم ابحرت الى هرمز فاذا كان اسماعيل المقصود هو الشاه اسماعيل الصفوى فكيف انطلقت هديته من الاحساء خاصة ونحن نعرف ان الاحساء والقطيف والبحرين فى ذلك الوقت كانت تحت سيطرة الجبور وحاكمهم القوى مقرن بن أجود . يضاف الى ذلك ان المصادر البرتغالية تطلق على اسماعيل فى بعض الوثائق لقب الشيخ الكابتن اسماعيل

---

( ٩ ) عن ترجمة الحميدان لمذكرات البوكيرك جـ ٥/ ١٥٣ و ١٧٦ و ١٧٧ والحميدان ص ٧٢ .

(١٠) كاستانيدا - فرنوا لوبيز ص ٨٤٤ .

(١١) نفس المصدر ص ٨٤٤ .

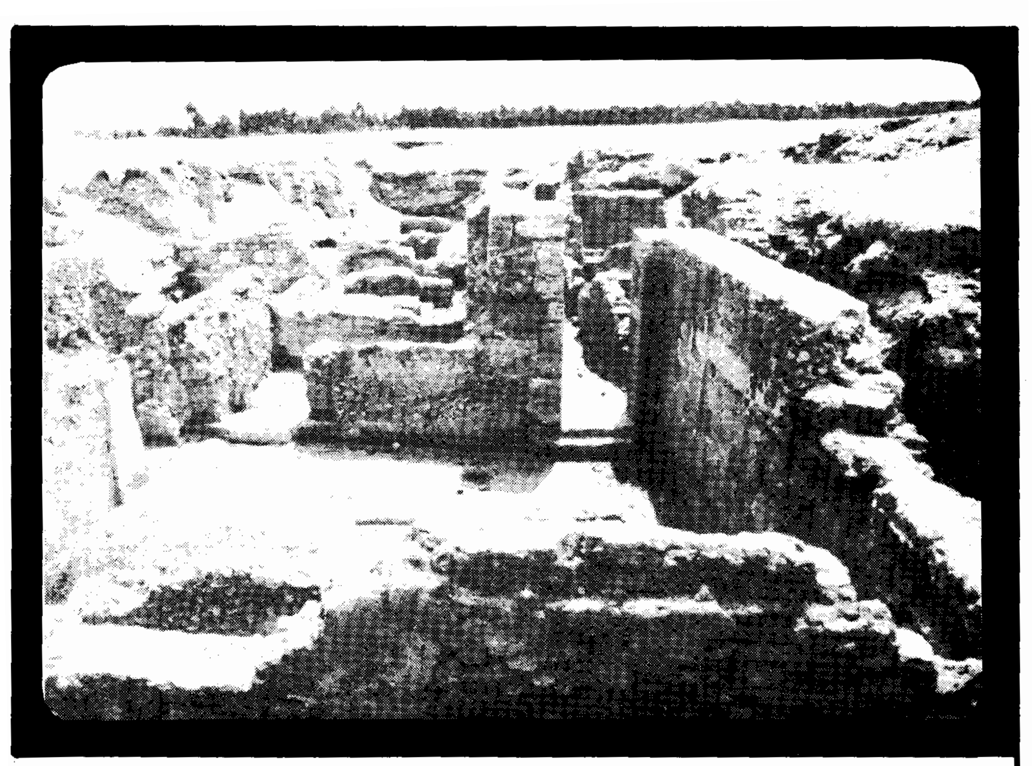



صورة حديثة لأحد أبراج قلعة البحرين
أخذت في مايو ١٩٨٢

---

ولفظ الشيخ يطلق عادة على الزعماء العرب ولم يعهد اطلاقه على احد حكام البلاط الفارسى .

من كل ذلك فاننا نرجح وجود اثنين يحملان نفس الاسم (اسماعيل) ونرجح أيضا ان كلاهما أرسل سفارة للبوكيرك احدهما هو الشاه اسماعيل الصفوى فسياق الحوادث لا

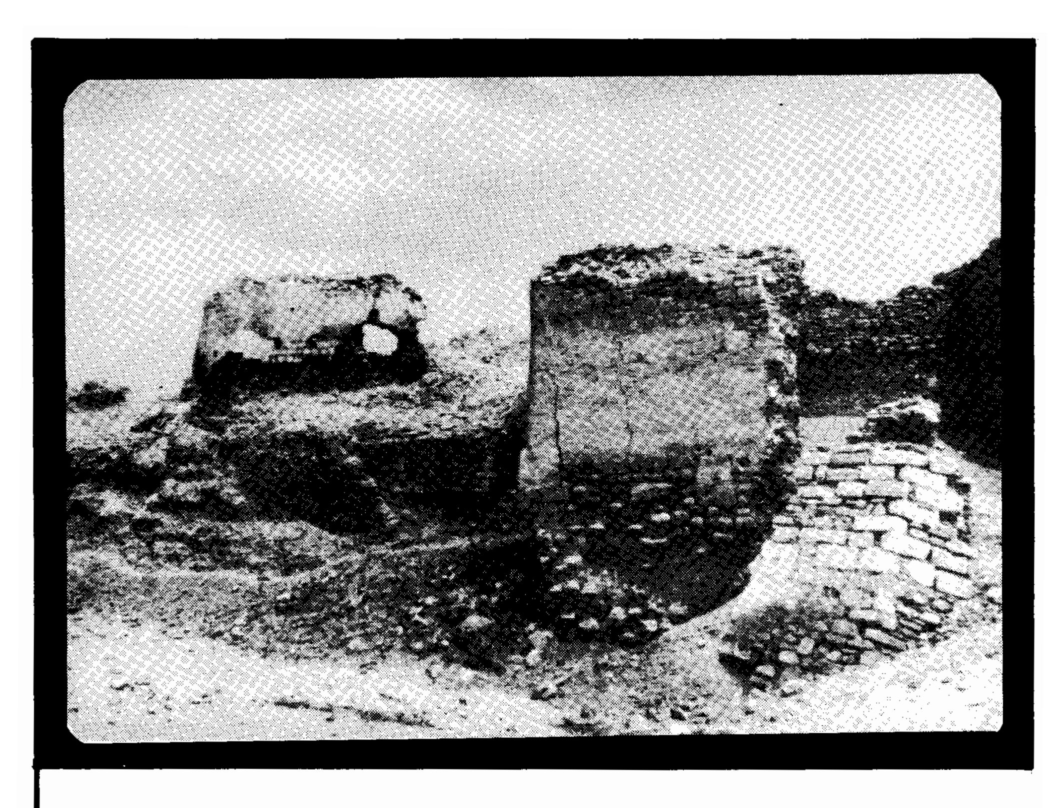


صورة لحفريات الاستاذة مونيك والتى كشفت فيها عن قواعد القلعة الاسلامية أخذت فى مايو ١٩٨٢

يعارض امكانية لجوء الشاه الى اعادة العلاقات مع البرتغاليين عقب الخلاف الذى نشب بينهما بعد احتلال البرتغاليين لهرمز اضافة الى ان استيلاء العثمانيين على تبريز عاصمة الفرس يمكن ان يدفع الشاه الصفوى للتحالف مع البرتغاليين لمواجهة خطر الدولة العثمانية على أملاكه .

أما الآخر فلا يستبعد ان يكون شخصا عربيا مال للخيانة فأقام علاقات مع البرتغاليين بدليل انه يحمل الى جانب لقب الشيخ لقب كابتن . وانه كان يقيم فى الاحساء ورأى الظرف مناسبا لتحقيق اطماع خاصة به عن طريق التعاون مع البرتغاليين لضرب دولة الجبور يؤيد ذلك وجود أعداد كبيرة من الجنود المرتزقة من العرب ضمن قوات الغزو ولا يستبعد ان يكون الشيخ الكابتن اسماعيل هو الذى جمعهم وعلى العموم فان الامر يحتاج الى مزيد من البحث حول هذه الشخصية على ضوء ما قد تكشف عنه الوثائق الجديدة

على العموم فقد مات البوكيرك سنة ١٥١٥ م ولكن سياسة البرتغال ظلت كما هى فشهدت سنة ١٥٢٠ م اذن الاستعداد الفعلى للغزو فقد ظهر الاتجاه



**صورة لجزء من سور قلعة البحرين بساحل الجابور أخذت فى مايو ١٩٨٢**

الحقيقى لكل فريق وشهد نفس العام اتفاقا بين البرتغاليين وملك هرمز على غزو البحرين وتم اعداد قوة كبيرة من سواحل الخليج تدعمها السفن البرتغالية وتتكون غالبيتها من سفن عربية وعدد كبير من المرتزقة العرب والفرس .

أما الجبور فكانت نذر الغزو قد وصلتهم منذ وقت طويل فعاد السلطان مقرن من الحجاز ليشرف بنفسه على تنظيم قواته استعدادا للهجوم المنتظر ، فجهز اسطولا كبيرا استعان فى بنائه بعمال مهرة من الترك والعرب والفرس كما أعاد تقوية أسوار وتحصينات البحرين والقطيف وبذل اهتماما كبيرا فى اعداد قلعة البحرين .

وهنا يأتى استطراد لابد منه لتصحيح خطأ تاريخى حول قلعة البحرين فالكثيرون يطلقون عليها خطأ (قلعة البرتغال) معتقدين ان البرتغاليين هم أول من أقامها والصحيح انها كانت موجودة من قبل وقائمة فوق ركام قلعة اخرى أقدم منها بدليل استخدام السلطان مقرن لها ضمن الاستعدادات لمواجهة الغزو البرتغالى فقد ورد نص فى الوثائق العثمانية يقول ان الشيخ أو السلطان مقرن وضع الاستحكامات

والمتـــاريس قــرب قلعـــة البحـــرين وان البرتغاليين اطلقوا عــلى القلعة المـدافع واصــابوا بعض جـدرانهـا فتصـدعت واستمر الرمى ثلاثة أيام . ويقول النص كذلك ان البرتغاليين وجدوا مدينة كبيرة فى جزيرة البحرين سموها المنامة (١٢) ـ وكان ذلك أول نص وجدناه حتى الآن فيه ذكر للمنامة ـ وانهم وجدوها محاطة بسور شامخ مبنى من الطين لمنع دخولها أقامه الأمير مقرن . وهذه النصوص تدل عــلى ان قلعـــة البحـــرين لم ينـشئهـــا البرتغاليون وانها كانت موجودة قبل ذلك التاريخ لأن السلطان مقرن وجنده كانوا يتحصنون فى القلعة وخلف أسوار المدينة كمــا ذكر ذلك البـرتغــاليـون أنفسهم . والمقبول بأن البرتغاليين بعد الغزو قاموا بتجديد بنائها بعد اقتحامها بالاضافة الى كل ذلك فقد تـوصلت الاستاذة مـونيك التى قامت بحفرياتها تحت القلعة فى أكثر من فترة الى وجود اثـار قلعة اســلامية قديمة اسفل القلعة الحالية وقـد عثرت خلال تنقيباتها على نقود وخزف وفخـار يؤكد ذلك كما تمكنت من وضع تخطيط لتلك القلعة الاسلاميـة التى كانت تقــع اسفل قلعة البحرين ثم توصلت فى الآونة الاخيرة الى ان القلعة الاســلامية تقــع بدورها فوق قواعد تعود الى القرن الثالث قبل الميلاد . كما يوجد نص فى طبقات ابن سعد يشير الى وجــود حصن فى جزيــرة أوال وهذا النص يعود الى عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه . من كل ذلك نخلص الى ان القلعة عربية وليست برتغالية .

بعد هذه الاستعدادات من الجانبين وفى ١٥ يونيو ١٥٢١ م تحرك الاسطول من هرمز وبدأ الغزو وكانت القوات التى اعدت له من جانب البرتغاليين تتكون من قوات ملك هرمز وقوامها ثلاثة الاف من المرتزقة من الفرس والعرب تحملهم مائتا سفينة ويقودهم (ريس شرف الدين) أو ريس ظرفــه كمــا تــطلق عليــه بعض المصادر ومن القوات البرتغالية وقوامها أربعمــائة بــرتغالى تحملهم سبــع سفن كبيرة مزودة بمدافع ضخمــة ويقودهــا (انطونيو كوريا) وكان يقيم فى هرمز .

وتكونت قوات الجبور من اثنى عشر الفا من العرب واربعمــائة رام للسهــام وثلاثمائة فارس عربى وعشرين جنـديا تركيا من حملة البنادق كانــوا يدربــون السكان المحليين على القتال واستخـدام الاسلحة النارية . وكانت القوات بقيادة الامير مقرن .

وتصف المصادر البرتغــالية المعــركة الفــاصلة فتقول ان اثنى عشر الفــا من العرب يقودهم الامير مقرن كانوا يقفون بمحــاذاة السور وان القــائد البــرتغالى (انطونيو كوريا) اضــطر للانتظار ستــة ايام حتى يصله المدد من هرمز خــاصة

(١٢) د. اوزبران ـ الامبراطورية العثمانية وطريق الهند ـ مجلة كلية الآداب باسطنبول العدد ٣١ سنة ١٩٧٨ . مترجم من التركية للانجليزية ولنفس المؤلف ـ الاتراك العثمانيون والبرتغاليون فى الخليج العربى ص ٢١ .

عندما وجد قوات السلطان مقرن متحصنة وراء السور . وان كوريا لجأ بسفنه الى مكان أمين يحتمى فيه من الاعاصير البحرية وانه عزم بمن معه وعددهم مائتان وعشرون رجلا مسلحين بأسلحة مختلفة على النزول الى البر بعد ان اشار عليه كبار رجاله بذلك وانه نزل بالفعل ودارت معركة حامية لم تسفر عن النجاح فلما جن الليل توقفت الحرب حتى اذا جاء الصباح كان البحر جزرا وكانت سفن البرتغاليين بعيدة عن الشاطىء فخاض البرتغاليون فى البحر ليصلوا الى سفنهم وتستطرد هذه المصادر فتقول ان الملك مقرن أو كما يطلقون عليه مكرم كان يقف مع جنوده وهم يصوبون رصاصهم وسهامهم نحو البرتغاليين وان لم يصيبوهم وان البرتغاليين عادوا للنزول الى الشاطىء والتحموا مع المدافعين فى معركة قتل فيها بعض أهل البحرين وكان انطونيو كوريا يحمل العلم البرتغالى ويطوف بجنده يشجعهم على اقتحام السور ودخول المدينة لقتل المسلمين فيها ـ كما كان يقول لهم ـ وانه خلال هذه المعركة اصيب السلطان مقرن بجرح فى ساقه فضعفت معنويات جنده حيث لم يكن لهم قائد يحل محله ـ كما تقول الرواية البرتغالية ـ وان بعض جنده قاتل قتالا مستميتا وان كوريا جرح ايضا فى ذراعه اليمنى . ونظرا لاستمرار القتال مدة طويلة فقد اصاب التعب والارهاق جند البرتغال كما كثر بينهم الجرحى ولكن وفاة الامير مقرن بعد ثلاثة أيام متأثرا بجراحه رفعت من معنويات البرتغاليين وشجعتهم على مواصلة القتال ..

وهناك مجموعة اخرى من الوثائق تذكر المعركة الفاصلة بصورة اخرى فتقول ان المعركة بدأت فى هجير الصيف وقد قام أهل البحرين بوضع المتاريس والاستحكامات على طول الساحل قرب القلعة ولكنها لم تمنع القوات من النزول للبر نظرا لدعم المدفعية الثقيلة الموجودة على سفن البرتغاليين لتقدمهم وشبت معركة حامية كان السلطان مقرن يتنقل خلالها وسط جنوده يحثهم على الصمود حتى اصيب بطلق نارى فى فخذه نقل بعده الى احد المساجد وتولى القيادة (الشيخ حميد) وبعد ستة أيام مات مقرن متأثرا بجراحه وشاع خبر وفاته فانهارت معنويات الجنود المدافعين مما اضطر الشيخ حميد لأن يأمر قواته بالانسحاب الى القطيف على الفور وحملت قوات الجبور جثمان البطل مقرن ليدفن فى الاحساء . وهنا تتضارب الاقوال فتذكر المصادر البرتغالية ان (رئيس شرف الدين) قائد قوات هرمز أمر قواته بانتزاع جثة السلطان مقرن من أيدى قواته ثم أمر بقطع رأسه وحمله معه الى هرمز وتذكر رواية برتغالية اخرى ان انطونيو كوريا هو الذى قبض على السفينة التى كانت تحمل الجثمان من البحرين الى الاحساء أو القطيف وانه احتز رأسه . أما (ابن اياس) فيذكر ان



صورة الكتابة الموجودة على الحجر بجزيرة جده

مقرن وقع حيا فى أيدى البرتغاليين وأنه ساومهم على ان يدفع لهم ألف ألف دينار فدية ولكنهم قتلوه صبرا وهى رواية ضعيفة وذلك لأنه لو صحت هذه الرواية لكان الاجدى به ان يدفع لهم قبل القتال مقابل انسحابهم خاصة وان الذريعة المباشرة للغزو كانت امتناع البحرين عن دفع عائد بعض البساتين لهرمز .

ويشد الانتباه لدى قراءة تفاصيل غزو البحرين كيفية تمكن القوات البرتغالية وقوات هرمز وهى كما تذكر المصادر لا تزيد على ثلاثة آلاف واربعمائة جندى من الاستيلاء على البحرين بهذه السرعة رغم ان القوات المدافعة عنها وكما تقول نفس المصادر تزيد عن الاثنى عشر الف جندى محصنين خلف اسوار قلعة ومدينة تحوطها الاستحكامات خاصة وان المعركة دارت فى هجير الصيف وهو صيف تعود عليه المدافعون من أهل البلاد ولم يتعود عليه المهاجمون الذين جاءوا من شمال أوروبا ..وفى هذا الصدد لابد ان يكون ماثلا أمام الذهن عدة أمور :

أولا : معظم المصادر التى تعرضت

للموضوع برتغالية وقد كتبت بطبيعة الحال من وجهة نظر البرتغاليين انفسهم وحتى الوثائق التى اخذت عمن حضر الاحداث كالبوكيرك تمثل ايضا وجهة النظر البرتغالية .

ثانيا : من الوارد ان يبالغ البرتغاليون فى زيادة حجم القوات المدافعة عن البحرين وان يبالغوا ايضا فى صغر حجم قواتهم بهدف التباهى أمام حكومتهم وشعبهم وأمام أوروبا بأنهم انما انتصروا على قوات تفوقهم عددا بمرات كثيرة .

ثالثا : تذكر هذه المصادر ان انطونيو كوريا عندما وجد ان حجم القوات المدافعة كبيرا اضطر للانتظار ثلاثة أيام أمام الشاطىء وفى بعض المصادر ستة أيام حتى يصله المدد من هرمز ثم هى تتغافل عن ذكر أى شىء عن هذا المدد وعن حجم القوات التى وصلت كمدد وهل وصلت أم لا وهل هذا المدد كان يشمل قوات هرمز الثلاثة آلاف مع سفنهم المائتين أم ان هذه القوات كانت موجودة معه وان المدد كان شيئا اخر .

رابعا : تذكر المصادر البرتغالية ان انطونيو كوريا كان يحمل العلم ويتنقل بين قواته يحثهم على القتال ويطلب منهم اقتحام المدينة (لقتل المسلمين) والقائد لا يترك مكانه ويتحرك وسط الجند ويلجأ الى اثارة الحماس الوطنى (باستخدام العلم) والدينى (بطلبه قتل المسلمين) الا اذا كانت المعركة بالغة الضراوة والعنف والا اذا كان هؤلاء الجنود يمرون بفترة تخاذل وانهزام .

خامسا : تذكر هذه المصادر ان السلطان مقرن اصيب فى ساقه وانه مات بعد ثلاثة ايام وهو أمر يدعو للتحوط فاصابة الساق لا تقتل بعد ثلاثة أيام وخاصة اذا اصيب بها قائد كبير متمرس وقد يكون من المقبول ان فخذه بترت بواسطة احد المدافع أو انه قتل برصاصة فى رأسه كما تذكر بعض المصادر .

سادسا : لم تذكر المصادر البرتغالية شيئا عن السفن السبع بمدافعها الضخمة ولا على نوع السلاح الذى زود به مقاتلوها وهو البنادق خاصة وهذا النوع من السلاح كان هو السلاح الحاسم فى معارك كان سلاحها الرئيسى السهام والسيوف .

سابعا : لم تذكر الوثائق شيئا عن اسطول مقرن ففى الوقت الذى ذكرت فيه انه بعد عودته من الحجاز أشرف بنفسه على بناء اسطول قوى لم تذكر أى شىء عن دور هذا الاسطول فى المعركة ولا يسع الانسان هنا الا التساؤل هل سبق النزول للبر معركة بحرية أو مناوشات بحرية دمر خلالها هذا الاسطول واضطر مقرن بعد ذلك الى التراجع للدفاع وراء استحكاماته خاصة وان سبع سفن برتغالية مزودة بمدافع ضخمة قادرة على تحطيم اسطول من مراكب صغيرة تم اعداده على عجل ، يدعونا الى ذلك ان جزيرة كالبحرين اعتاد سكانها على البحر واعدوا اسطولا فمن

المنطقى ان يبدأوا حربهم فى البحر . أم ترى الاسطول البرتغالى فاجأ الاسطول المدافع ولم ينته اعداده بعد ، ام ان السلطان مقرن اختار الدفاع فى البر من خلف اسواره الحصينة . أم ان هناك خيانة حدثت خاصة وهناك اسم يبرز وسط الوثائق البرتغالية مدموغا بالخيانة هو الشيخ الكابتن اسماعيل كلها حلقات مفقودة قد يؤدى الكشف عن تفاصيلها - وهو أمر مطروح - الى اعطاء صورة كاملة عن تفاصيل المعركة أو المعارك الفاصلة فى غزو البرتغاليين للبحرين .

وأيا ما كان الأمر فان الشىء الواضح رغم تضارب الوثائق هو ان المعركة كانت حامية الوطيس وان المدفعية البرتغالية قامت بدور كبير فى دك أسوار القلعة وهدم جدرانها وكانت هى نقطة الدفاع الرئيسية يؤكد ذلك ما كتب على جبل جزيرة (جده) وهو هذا النص : « فى شهر شعبان سنة ثمان وستين وتسعمائة وافق الفراغ من قطع ماية الف صخرة لتجديد بروج قلعة البحرين أيام الوزير الأعظم جلال الدين بن مراد شاه على يد العبد (١٣) » وقد صورت هذه الكتابة وهى محفوظة بمركز الوثائق التاريخية بالبحرين . وهذا النص يدل على ان القلعة تعرضت لتدمير جسيم يحتاج اصلاحه لهذا القدر الضخم من الحجارة .

خلاصة الأمر ان المعركة انتهت لصالح القوات الغازية وأعيدت البحرين الى تبعية هرمز وتم وضع حامية برتغالية بقلعتها بعد ترميمها ومنح ملك البرتغال (يوحنا الثالث) وسام النصر (لأنطونيو كوريا) وسمح له ان يلبس الوسام على ذراعه وارسل رأس الأمير مقرن الى هرمز حيث نقشت المعركة على مسلة من الحجر وأمر ملك البرتغال بأن يقرن اسم البحرين وكانوا يسمونها ( بهاريم ) مع اسم انطونيو كوريا مع رسم لرأس البطل على درعه وشعاره

***

لم يركن أهل البحرين للاحتلال البرتغالى وانما شهدت البلاد وبعد فترة قصيرة من الاحتلال بعض صور المقاومة ، وتتحدث الوثائق العثمانية ان أول هذه الصور بدأ فى سنة ٩٢٨ هـ/١٥٢٢م . فنحن نعلم ان هرمز فى ذلك الوقت كانت تابعة للبرتغاليين وان حاكمها «توران شاه» كان مواليا لهم ويبدو ان البرتغاليين حاولوا تكريس احتلالهم لهرمز فتحدثنا الوثائق ان ملك البرتغال قرر ان يضع موظفين برتغاليين فى دار الجمارك محل الهرمزيين وان توران شاه قاوم هذا القرار وانه بدأ فى التنسيق لمقاومة البرتغاليين ليس من هرمز وحدها وانما من المناطق المحتلة فى الخليج فرتب لثورة ضدهم تقوم فى هرمز

---

(١٣) فيروز .

والبحرين ( ومسقط وقريات وصحار ) بعمان .. وفى وقت واحد وفى ليلة واحدة قامت جميع هذه المناطق بترتيب توران شاه وعلى حين غرة بالهجوم على البرتغاليين برا وبحرا .

ففى هرمز هاجموا المدافعين البرتغاليين وقتلوا الكثيرين منهم وحاصروا « دوم جرسيا كويتهر » قائد قلعة هرمز البرتغالى . ولكن مجىء سفينتين من مسقط انقذه .. وبعد فترة وجيزة وصلت نجدات اخرى مما احبط هجوم ملك هرمز واضطره لرفع الحصار وترك المدينة . ليقتل بعد ذلك بيد احد أتباعه (١٤) قيل انه انهزم الى جزيرة القشم حيث قتل هناك وخلفه ابنه (محمد شاه) وكان صغيرا لم يبلغ من العمر الثالثة عشرة فعقد حلفا مع البرتغاليين .

وفى البحرين هاجم الاهالى القلعة وقبضوا على قائدها البرتغالى وشنقوه الا ان وصول المدد للجنود البرتغاليين أحبط الهجوم وعاد البرتغاليون للسيطرة على الموقف .. ويتضح من هذه الحوادث ان الاحتلال البرتغالى كان مقصورا على السواحل وانهم كانوا يكتفون ـ ربما لقلة عددهم ولرغبتهم فى القرب من سفنهم ـ باحتلال الاستحكامات على الشاطىء والقلاع وان كان هذا لايمنع من القيام بغارات همجية على الداخل لنهب الاموال وقتل المواطنين واحراق الاسواق والسفن ثم العودة الى قواعدهم (١٥) .

ولم تكن هذه الثورة هى نهاية المطاف . فما كاد عام ٩٣٦ هـ/ ١٥٢٩ م يأتى حتى نعرف ان الحاكم فى هرمز أصبح «شرف الدين» ويبدو انه كان حاكما تحت الاحتلال البرتغالى وان الحاكم فى البحرين شخص تطلق عليه الوثائق البرتغالية اسم «بربادين» ويبدو ان هذا الاسم تحريف لاسم «بدر الدين» وهو عربى قريب النسب من «شرف الدين» ونعرف ايضا ان البحرين كان عليها ان تدفع الضريبة لحاكم هرمز وان «بدر الدين» امتنع عن دفع هذه الضريبة فأرسل نائب الملك البرتغالى فى ذلك الوقت أخاه «سيماو داكونها» يقود حملة بحرية فى محرم ٩٣٦ هـ / سبتمبر ١٥٢٩ م تتكون من خمس سفن تحمل حوالى خمسمائة رجل مع ست سفن اخرى مزودة بالمدافع ويقودها «بلشوار دى سوسا» الذى اخذ يقوم بدورياته فى المياه القريبة من جزر البحرين ليمنع «بدر الدين» من جمع المقاتلين من السواحل المجاورة وتقول الوثائق ان «بدر الدين» وكان يقود ثمانمائة رجل رفض تسليم قلعة البحرين فأطلق عليها البرتغاليون النيران من مدافع سفنهم واصابوا بعض جدرانها فتصدعت وواصلوا ضربها

(١٤) موغول محمد يعقوب ـ السياسة العثمانية فى المحيط الهندى فى عهد القانونى بين سنة ١٥١٧م/ ١٥٣٨م . باللغة التركية ـ اسطنبول ١٩٧٤م ـ والأتراك العثمانيون والبرتغاليون فى الخليج العربى ص ٢٥ و ص ٢٦ .

(١٥) وثيقة احتجاج الى السلطان دان جوان البرتغالى برقم ٩٢٢ فى مركز الوثائق التاريخية بالبحرين .

بالمدافع ثلاثة أيام حتى نفدت ذخيرتهم من البارود والقوات المدافعة صامدة .. فأرسل البرتغاليون يطلبون المدد من هرمز ووصلتهم النجدات بعد اسبوعين وهى مدة طويلة لعبت الظروف دورها فيها لصالح المدافعين عن البحرين اذ انتشرت الحمى بين الجنود البرتغاليين وقضت على أكثرهم فلم يبق منهم حيا سوى ٣٥ جنديا وكان بامكان أهل البحرين ابادتهم بغاية السهولة الا انهم عاملوهم بشهامة فتركوهم ليعودوا حتى يقصوا على البرتغاليين ما لاقوه ولكن أكثرهم لم يتمكن من ذلك اذ واجهوا محنة اخرى فى عودتهم وسط الامواج والاعاصير ومات (سيماو) فى الطريق ولم يصل منهم الى هرمز الا بقايا البقايا .

فى هذه الاثناء بدأت المنطقة تشهد تغييرا فى موازين القوى الكبرى اذ جاء للحكم فى الدولة العثمانية السلطان سليمان القانونى (٩٢٦ هـ/ ٩٧٤هـ) وهو احد الحكام العثمانيين الاقوياء وقد تمكن من طرد الفرس من بغداد وشمال ووسط العراق سنة ٩٤١هـ/ ١٥٣٤م ولما كانت عواطف معظم العرب فى ذلك الوقت تميل فى معظمها الى الدولة العثمانية باعتبارها اكبر دولة اسلامية وحاملة لواء الدفاع عن الاسلام ، فقد اقبلت على السلطان سليمان القانونى الوفود تقدم له الطاعة والولاء وقد شجع ذلك السلطان على بسط نفوذه على الاحساء والبحرين وتذكر الوثائق العثمانية انه فى سنة ٩٤٢هـ/ ١٥٣٥م منح السلطان حاكم البحرين فى ذلك الوقت وكان شخصا اسمه (رئيس مراد) لقب سنجق بك لتقديمه الولاء وقد شهدت هذه السنين اهتماما عثمانيا بالخليج كما شهدت تواجدا أوضح للقوات العثمانية جعل لها دورا بارزا ومباشرا فى الصراع الدائر فى الخليج مما كان له اثره على الاحداث القادمة . فقد ارسل شرف الدين حاكم هرمز رسالة للسلطان يطلب منه ارسال مساعدة للتخلص من البرتغاليين فى هرمز واستجاب السلطان فأرسل أسطولا الى خليج البصرة بقيادة (بيرى بك) (١٦) الذى توجه باسطوله الى مسقط ويقال انه احتلها ثم انسحب منها دون أن يستطيع مهاجمة هرمز وعادت سفينة عثمانية محملة بالغنائم ولكنها غرقت قرب البحرين .

وفى سنة ٩٥٢هـ/ ١٥٤٦م كان العثمانيون قد دخلوا البصرة وطردوا حاكمها الأمير ابن مغامس

واقترب العثمانيون بذلك من البرتغاليين الذين كانوا يتخذون من هرمز قاعدتهم الرئيسية فى الخليج واقترب الصراع بين القوتين خطوات أكثر .. وقد حاولت القوات العثمانية الهجوم على هرمز الا انها لم تتمكن واستولت فقط على جزيرة

(١٦) بيرى ـ محى الدين رئيس ـ ملاح عثمانى ورسام خرائط لعله من أصل يونانى صنف كتابا فى الملاحة فى بحر ايجة والبحر الأبيض وخريطة الجانب الغربى من العالم . قطع رأسه بأمر السلطات سنة ١٥٥٥ م ( المنجد ـ جزء الاعلام ـ ص ١٥٩ ) .

قيس الا ان البرتغاليين اخرجوهم منها .

والغريب انه منذ استيلاء العثمانيين على العراق ودخول الدولة العثمانية طرفا مباشرا فى الصراع بالخليج فاننا نلاحظ ندرة المعلومات عن تفاصيل الصراع وتحركات القوى بالمنطقة فى تلك الفترة . كما كان التاريخ ضنينا علينا بتفاصيل الدور الذى لعبته الدولة العثمانية على سواحل الخليج العربى ولم يتطرق لهذه الفترة احد من المؤرخين المعاصرين لتلك الحوادث أو الذين جاءوا بعدها . ومن العجيب ايضا الا يتطرق لهذه الحوادث مؤرخون أمثال ( جلال زاده مصطفى ) و (بيجويلى ابراهيم) وجليبو لولو مصطفى على . اللهم الا (صفوت بك) الذى تعرض لبعضها ونشر بحثا مقتضبا عنها .. واذا كانت عملية التاريخ قد شابها قصور ملحوظ بالنسبة لهذه الفترة وهذه المنطقة الا اننا نلاحظ - على العكس - ان الوثائق العثمانية قد اسهبت فى تفصيل الحوادث التى تتعلق بجزر البحرين وان كانت هذه الوثائق لم يتطرق احد لبحثها حتى الآن وربط ما فيها من احداث .. وذلك كله يمثل صعوبة أمام الباحث فى محاولته ربط حلقات التاريخ وايجاد التسلسل المنطقى لتحركات القوى أو تحليل لتغير المواقف بالنسبة لبعض القوى والامارات فى المنطقة ، والذى يكون انعكاسا للموازين العسكرية أو السياسية . وان كنا سنحاول على ضوء بعض الوثائق ربط الحوادث بقدر الامكان .

لقد دفع دخول العثمانيين الى حلبة الصراع العسكرى مع البرتغاليين فى الخليج بعض الحكام المحليين الى طلب المساعدة منهم للتخلص من التبعية لهرمز التى كانت بدورها واقعة تحت النفوذ البرتغالى . وهذا ما حدث فى القطيف اذ استعان أهلها بالعثمانيين لطرد الحاكم الهرمزى وجنوده الا ان البرتغاليين قاموا باستعادة القطيف واعادة الحاكم الهرمزى الموالى لهم خوفا من ان يؤدى احتلال العثمانيين للقطيف الى زعزعة نفوذهم فى البحرين . وقد تمكن العثمانيون بعد ذلك من الاستيلاء على الحسا بواسطة شخص اسمه (عبد الله) وهو ابن حاكم الحسا السابق .

وجرد العثمانيون حملة ثانية فى عام ٩٦٠ هـ/١٥٥٢م بقيادة (بيرى بك) أيضا وذلك للاستيلاء على مسقط والبحرين وهرمز . فخرج بيرى بك فى حملته من مصر ومعه ثلاثون سفينة من نوع (الباستاردة) و(القادرغة) و(القاليتة) و(القاليون) ووصل الى جدة ثم الى عدن فرأس الحد .. ولكن سفنه تفرقت بسبب الضباب الكثيف وتحطم بعضها بقرب (صحار) فى عمان بينما توجه هو ببقية سفنه الى قلعة مسقط واسر من فيها وكان من بين الاسرى احد القباطنة البرتغاليين ثم أغار على جزيرة هرمز وجزيرة برخت ثم وصل الى البصرة حيث جاءته الاخبار بأن البرتغاليين جمعوا سفنهم وانهم يتجهون اليه فى البصرة ، فخرج متسللا بثلاث سفن من

نـوع (القـادرغـة) قـبـل ان يصـل البرتغاليون وفى الطريق تحطمت واحدة من السفن الثلاث بالقـرب من البحرين وتوجه (بيرى بيك) بالسفينتين الباقيتين الى مصر تـاركا بقيـة السفن بالبصـرة وكانت هذه نهاية (بيـرى بك) فقـد أمر السلطان باعدامه بعد فشله للمرة الثانية فى الخليج .

وعين السلطان سليمان القانونى قائدا جديدا للاسطول هو (على شلبى) أو (على رئيس) كمـا تسميه الوثـائق العثمانيـة وذلك فى سنة ٩٦١ هـ/١٥٥٣ هـ وأمره بـالتوجـه الى البصـرة لاخـراج السفن العثمانية من هناك وتوجـه (على رئيس) الى الخليـج فهـاجم مسقـط التى ركـز البرتغاليون دفاعهم عنهـا ولم ينجح فى الاستيـلاء عليهـا رغم الخسـائـر التى تكبدها العثمانيون والبـرتغاليـون . ثم توجه بعـد ذلك الى القطيف فسـأل عن البرتغاليين فلم يعرف خبـرا عنهم فعبر البحر الى البحرين حيث اخبره حاكمها مراد رئيس بأن البرتغاليين ليسوا فى البحر .

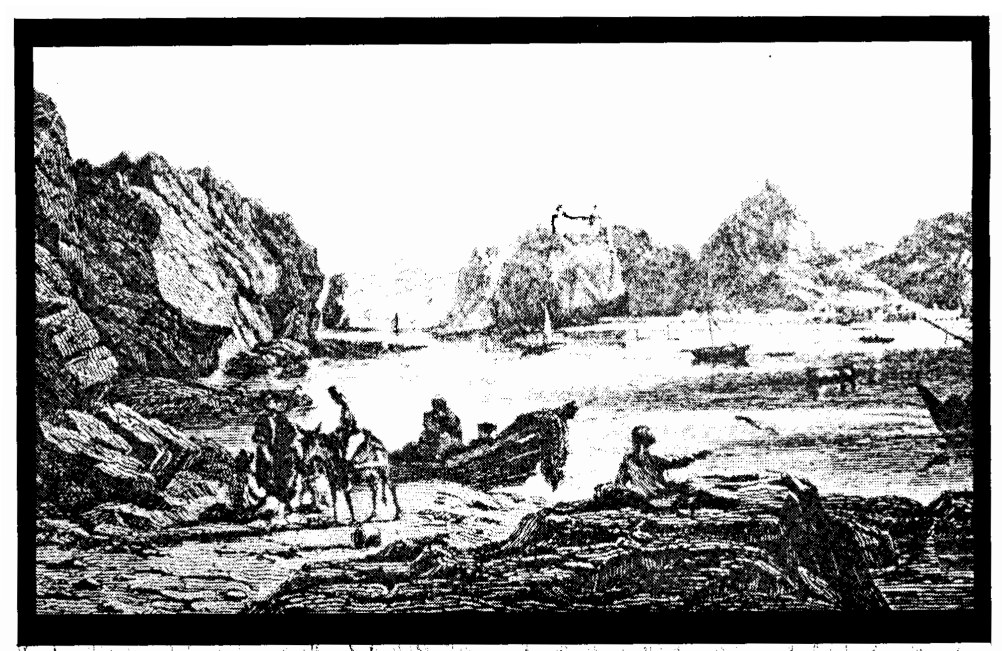
وكان على شلبى شاعرا وأديبا وتقدم الوثائق التى تحكى عن رحلته معلومات مفصلة عن البحـرين وقـد جـاء فيهـا « وصلت الى مـدينة القـطيف الواقعـة بالقرب من الحسا (لحسا) وهناك وجدنا دليلا فسألنـاه عن العدو البـرتغالى ولم نتمكن من الحصول على خبر بهذا الشأن فاجتزنا البحر الى البحرين حيث التقينا (بمراد رئيس) أو (رئيس مراد) سألناه كذلك عن العدو فقال ايضا ان العدو ليس بالبحر . وفى البحرين وجدنا ويا لها من حكمـة عجيبة ـ الغـواصين وكـل واحد منهم يمسك بيده زقا ويغوص فى البحـر حوالى ثمانية باعات ( الباع حوالى المتر ونصف المتر ) أو أكثر ثم يملأ ما بيده من زق بمـاء عذب من القـاع وكان هـؤلاء الغواصون يأتون بالماء العذب الى (مراد رئيس) دائما . وفى أيام الصيف يكـون هذا الماء أكثر برودة من الميـاه الاخرى وأكثر عذوبة أيضا وحيث انه كذلك فقد كان (مراد رئيس) يكثر الشرب منه .

وقد ارسل مراد رئيس الى هذا العبد ـ الكاتب يقصد نفســه ـ من هذا المـاء كنوع من مظاهر الاحترام والحقيقة ان هذا الماء ـ كما يقول ـ كان جيدا جـدا وان الآيـة الكـريمـة ( مـرج البحـرين يلتقيان بينهما بـرزخ لا يبغيان ) انمـا تتحدث عن هذا وهم يعتقـدون ان هذا المـاء هو سبب اطلاق هـذا الاسم عـلى البلد (١٧) .

ويستشف من الوثـائق التى تتعرض لهذه الفترة ان عـلى شلبى أبلغ (رئيس مـراد) قـرار السلطان الذى اصـدره

---

(١٧) سيدى على رئيس ـ مرآة الممالك من ص ٣٧ و ص ٣٨ الطبعة التركية اسطنبول ١٣١٣ هـ



صورة متخيلة لاحدى القلاع البرتغالية بمنطقة الخليج وتصور اسلوبهم فى اختيار المواقع الحصينة والقريبة من البحر

بالنسبة للحكام الموالين وهو انه لا يحق لأى وال أو مسئول كبير من الاتراك - دون أخذ أمر من السلطان - ان يقض بأى شكل من الاشكال مضاجع الدول التى تدخل تحت حماية الدولة العثمانية واكد لحاكم البحرين ان علاقات الود والصداقة بين والى البحرين والدولة العثمانية ستستمر فى طريقها المعهود وانه من الممكن لوالى البحرين التعايش الطيب مع الحكام الاتراك فى المنطقة وان السلطان يقظ لأى اعتداء برتغالى على سواحل البحرين وان الديوان السلطانى سيقدم كل عون ممكن . كل ذلك يدل على ان البحرين فى هذه الفترة كانت موالية للدولة العثمانية وان حاكمها اصبح يتمتع باستقلال محدود وانه جرى تبادل السفراء بين البحرين والدولة العثمانية كما جرى تبادل المراسلات ومنح حاكم البحرين لقب سنجق بك فى سنة ٩٦٦ هـ/١٥٥٨ م ولكن يبدو ان هذه العلاقة لم تستمر طويلا فقد حدث ما عكرها بسبب تصرف احد الحكام الاتراك فى المنطقة وهو ما سنراه فيما بعد .

ونستمر فى تتبع الاحداث فما ان اهلت سنة ١٥٥٩ م/٩٦٦ هـ حتى نعثر على وثيقة صادرة من السلطان العثمانى الى والى مصر يخبره بوصول البرتغاليين الى ناحية البحرين وهم محمولون فى بعض السفن من نوعى (القادرغة) و(القاليون)

وان هؤلاء قاموا بالاغارة على المسلمين من أهل تلك البلاد واسروا بعضهم وعاثوا فى الارض فسادا والتاريخ حول هذه النقطة بالذات شديد الغموض ولا يملك الانسان الا ان يجهد ذهنه فى استنباط ما يمكن ان يكون قد حدث فلا احد يعرف هل تعرضت البحرين لمحاولة غزو جديدة من البرتغاليين الذين كان اسطولهم ما يزال فى الخليج وهل استنجد حاكم البحرين بالسلطان خاصة والبحرين كما قلنا فى ذلك الوقت كانت تعتبر امارة مستقلة ولاؤها للعثمانيين وكيف تصدت البحرين لهذه المحاولة . وهل أرسل والى مصر النجدة المطلوبة اننا لا نجد اجابة على كل تلك الاسئلة وربما كانت الاجابات موجودة فى الكثير من الوثائق العثمانية التى ما زالت فى حاجة للكشف عنها ولكننا مع ذلك نجد وثيقة هامة خاصة بغزو جزر البحرين فى عام ١٥٥٩م/٩٦٦ هـ وهذه الوثيقة لم تذكرها دفاتر المهمة فى ارشيف رئاسة الوزراء العثمانى وهى موجودة فى متحف (طوب كابو) فى استنبول فى قلعة غوشلر تحت رقم ٣٠٠٤ وكاتبها الذى يتضح انه كان احد القادة البارزين فى غزو البحرين فى هذه السنة لم يذكر اسمه وان كان يفهم انه كان رئيسا لسنجق تابع لايالة الاحساء . الوثيقة تقع فى اربع صفحات وغير مؤرخة وان سجلت فى المتحف عام ١٥٥٩ م/٩٦٦ هـ .

وقبل ان نعرض للوثيقة نستحسن ان نعرض لما تفيد به حتى لا يضيع السياق . فالوثيقة تحكى لنا ان حاكم الاحساء التركى واسمه مصطفى باشا جهز حملة للاستيلاء على البحرين ولا ندرى هل قام بذلك لانقاذ البحرين من الهجوم البرتغالى الذى اشارت اليه وثيقة السلطان الى والى مصر أم انه قام بهذه الحملة كمطمع شخصى دفعه لتوسيع ولايته بالاحساء على حساب القطيف والبحرين أم انه قام بذلك بناء على أمر من السلطان نتيجة لقربه من البحرين أو لصعوبات واجهت الوالى المصرى فى الاسراع بتلبية أمر السلطان . الاسئلة مطروحة ولكن ايا كان السبب المباشر فان (مراد رئيس) حاكم البحرين كما قلنا كان يحكم البحرين باقرار من السلطان العثمانى ولما كانت البحرين امارة مستقلة موالية للعثمانيين فقد أزعج (مراد رئيس) الهجوم العثمانى الذى قام به مصطفى باشا والى الاحساء وهو ابن محمد باشا المشهور بفاتح ديار بكر ويحتمل ان يكون قد دفن بالبحرين ونستشف من الوثيقة ان محاولة مصطفى باشا غزو البحرين واكبت نشاطا فى المعركة بين العثمانيين والبرتغاليين يؤيد ذلك ما تذكره الوثيقة من ان المعركة كانت فى اطار معركة اخرى أو معارك اشتركت فيها قوات من انكشارية بغداد كما ان البرتغاليين حاولوا فى ابانها الهجوم على البصرة واصطدموا بالعثمانيين فوق مياه الخليج .. حقيقة ان السلطان العثمانى تنصل فى نفس الوثيقة مما فعله مصطفى

باشا من هجومه على البحرين ولكن قد يكون ذلك نتيجة لفشل هذا الهجوم من ناحية وللتملص من مسئولية هجومه على امارة كانت موالية للعثمانيين من ناحية اخرى .

وقد يكون من المفيد الآن ان نعرض للوثيقة نفسها .

وقد كتب عنها الاستاذ جنكيز أورهنلى فاقتبس من المراسلات والسجلات التى تبودلت بين المختصين فى الدولة العثمانية والمتعلقة بها وخلاصة ما وقع بين المهاجمين لجزيرة البحرين بقيادة مصطفى باشا .

وكاتب الوثيقة كما قلنا نصب أميرا للواء تابع لايالة الاحساء ويفهم من سياق الكلام ان مصطفى باشا توجه بدون علم السلطان العثمانى (١٨) وبدأت الحملة بمحاصرة البحرين مستهدفة القلعة (قلعة البحرين) فى ١٣ رمضان ٩٦٦ هـ/ ١٥٥٩ م الى ٢٢ رمضان وبعد ثلاثة ايام أى فى ٢٦ رمضان وصلت ٢٢ سفينة برتغالية من نوع غراب (قارب) للدفاع عن جزيرة البحرين اتجهت عشر منها نحو البصرة فتصدى لها العثمانيون بسفينتين كبيرتين من نوع قرداغة وسبعين سفينة خفيفة مختلفة النوع وسفينة واحدة من نوع برجنتاين قدمت من البصرة وعليها ١٢٠٠ جندى بينهم عدد من انكشارية بغداد ارسلت لتعقب اثنتى عشرة سفينة برتغالية فى البحر فلجأ البرتغاليون الى الخداع فتظاهروا بالانسحاب من الخليج وتبعهم العثمانيون وعندما توقف القائد العثمانى عن مطاردتهم وعاد وجد بقية سفنه وذخيرته قد احرقها البرتغاليون وفقد العثمانيون بذلك تجهيزاتهم وعتادهم وسفنهم فلما توجه القائد العثمانى الى البر هاجمه البرتغاليون وذلك فى الثالث من شوال ٩٦٦ هـ/ ١٥٥٩ م وسيطروا على السفينتين العثمانيتين واسروا وقتلوا عددا من الجنود العثمانيين . وكان مصطفى باشا يحاصر قلعة (المنامة) عاصمة البحرين وهنا يرد اسم المنامة لأول مرة فى التاريخ سنة ١٥٥٩ م كما سبق ان قدمنا ـ وأصبح البحر مفتوحا أمام البرتغاليين فجمع مصطفى باشا ذوى الرأى من اصحابه واستشارهم فأشاروا عليه بحراسة جزيرة البحرين خشية الهجوم البرتغالى المفاجىء عليها ريثما يأتيه المدد من ولاية بغداد .

أحس مصطفى باشا ان الامور لا تسير فى صالحه فالبرتغاليون على وشك ان يحكموا حصارهم البحرى حوله والفرس سوف يسعدهم ان يشتركوا فى الاجهاز على قائد عثمانى ، وحاكم البحرين يرقب الامور وهو لا يستطيع ان ينسى ان مصطفى باشا غزا أرضه رغم

(١٨) انظر نص الوثيقة المرفقة وترجمتها .

ولائه للسلطان ورغم اقرار السلطان له على جزيرة البحرين ، كل هذه الظروف جعلت مصطفى باشا يتصل بأمير البحرين (مراد رئيس) عارضا ان يترك الجزيرة بشرط ان يقدم له (مراد رئيس) السفن التى تنقله هو ورجاله وبأجور يدفعها هو ولكن (مراد رئيس) رفض فانسحب الجيش العثمانى الى مكان بعيد عن الشاطىء فى داخل الجزيرة لا تصل اليه قذائف السفن البرتغالية وانتظروا ثمانية ايام وصل خلالها مدد بغداد ويتكون من ٣٠٠ فارس واربعمائة مسلح واستطاع البرتغاليون خلالها ان يحشدوا قواتهم التى انضم اليها بعض القوات الفارسية بالاضافة الى فرقة من قوات أمير البحرين يقودها (بن رحال) وكان كاتب الوثيقة نفسه يشترك فى المعركة قائدا على ٢٠٠ فارس . وقد تمكن كاتب الوثيقة من الانتصار على قوات (مراد رئيس) وأخذ أكثر هؤلاء الجند أسرى وقد غير ذلك سير المعركة لصالح العثمانيين . ولكن القوات المهاجمة استمرت فى محاصرتهم مما اضطر مصطفى باشا الى مفاوضة (مراد رئيس) على ان يسلم لهم أسراهم مقابل السماح للعثمانيين بالعودة على سفن تقدم لهم الى الاحساء فلم يوافق مراد رئيس وطالب ان يسلموا كل سلاحهم ومدافعهم فلما يئس العثمانيون وحاصرهم الجوع أذعنوا لمطالب مراد رئيس ووافقوا على تقديم ٣٥ فرسا و٢٤٠ اقجة (دراهم عثمانية) ولكن أمير البحر البرتغالى فى هرمز سمع بالمفاوضات فأرسل الى أمير البحرين يقول له (نحن فى البحر وأمير هرمز فى البر وسوف نمدكم بثلاثة الاف وقيل ٣٠٠ من العجم فلا تعقدوا مصالحة مع العثمانيين) وفشلت المفاوضات وضاق الامر بالعثمانيين ونفدت ذخيرتهم وأقواتهم وبدأ موسم الرياح الشرقية وجاءت معها الحمى التى فتكت بالكثير من الجند وأرسل العثمانيون وفدا لمفاوضة القائد البرتغالى فى (قلعة البحرين) وحضر الاجتماع ممثل من هرمز وكان كاتب الوثيقة احد الموفدين من العثمانيين ولم تنجح المفاوضات اذ قال أمير البحرين ان هذه الحملة هجمت على البحرين دون موافقة السلطان سليمان القانونى ودون علمه أو أمره فأجابه كاتب الوثيقة بأن السلطان باق على عهده وان الحملة بالفعل لم تكن بأمره وهو يطلب المعذرة ولكن المفاوضات لم تنجح ويتضح من الحكم السلطانى رقم/ ص ١١٤١ أن السلطان تدخل بعزل مصطفى باشا عن امارة الاحساء ونص الوثيقة الخاصة بذلك يقول :حكم سلطانى الى ( مراد شاه )صاحب البحرين ( رقم ص ١١٤١ )بعزل مصطفى باشا عن امرة امراء الاحساء . وفيه أنه ورد لدار السلطنة العثمانية من أمير امراء البصرة أن أمير امراء الاحساء ( مصطفى )قد تدخل فى أمر البحرين وسار الى البحرين التى هى تحت تصرف مراد شاه وعلى هذا اتفق مراد شاه مع البرتغاليين وأنهم أخذوا

حكم ٩٢ لحسا بكلربكيسنه حكم كه لحسا قاضيسى مكتوب كوندروب نفس بحرينه متصرف اولدوغى اوچ يوزدن زياده قريه اولوب وعسكرى ضعيف
احوالن وفتحى آسان اولدوغن مفصلاً عرض ايلمش لكن فتحى نوجهله ممكن اولوب نه مقدار كمسنه ايله كركدر
ونه زمانده قابلدر احوالن اعلام ايتمامشسن ايمدى بيوردم كه وصول بولدقده بو خصوصك حقيقتنى بيلمك ايچون
قاضى مشار اليه ويوجه احوالى وقوفى اولدوغى اخبارى سؤال ايدوب صحيحى اولورسه كورسن كه جزيرهنك
عسكرى ضعيف اولورسه نه تدبير ايله فتحى نوجهله ممكندر وحالا كه محمدى عسكر كوندرلمك لازم اولورسه نه زمانده
وارمق ممكندر ونه قدر ذخيره ايله فتحى ميسر اولور ونه مقدار كه مستعدلق كركدر اصلى نه در محصولى نه در مفصلاً
جميع احوالن كتابت ايله تمام معلوم ايدنوب وارد ووقوع اولان مفصل ومشروح يازوب بلدرسن

١٠ صفر ٩٨١ هـ
١٥٧٣ م

ارشيف رئاسة الوزراء العثماني
في استنبول

من دفاتر المهمة، رقم ٢٢ ص ٤٣، حكم ٩٢

هذا حكم أرسل إلى أمير أمراء الحسا

وصلت إلينا رسالة من قاضي الحسا، أنه يخبر في رسالته أن للبحرين أكثر من ثلاث مائة قرية، ويكتب أحوال البحرين وسهولة فتحها ولكنكم ما كتبتم في رسالتكم كيف يمكن فتحها وفي أي وقت يسهل وكم عدة يلزم لفتحها، نأمركم أنه حين ما وصل إليكم حكمي تتبعوا الأحوال وادعوا القاضي واسئلوا عنه هل هذه الأخبار صحيحة وهل عساكر الجزيرة ضعيفة وكيف يمكن فتحها؟ هل يجب إرسال العسكر من عندنا؟ إذا وجب في أي وقت أنسب وصولهم إليكم؟ بكم جندي يتيسر فتحها؟ كيف يجب الاستعداد لفتحها؟ كيف ماهية المسألة ومحصول الجزيرة؟ اكتبوا إلينا أجوبة هذه الأسئلة وسائر الأحوال المتعلقة للجزيرة.

أعطى إلى ممثله (كتخداسى)
في ١٠ صفر ٩٨١ هـ
١٥٧٣ م

ارشيف رئاسة الوزراء العثماني / استنبول

سفن العثمانيين وبقى العسكر العثمانى محصورا بجزيرة البحرين وبسبب هذا فقد أمر السلطان العثمانى بعزل مصطفى عن منصب أمير أمراء الاحساء ونصب مكانه أمير اخر ويطلب السلطان عودة ( مراد شاه )صاحب البحرين للطاعة وأن يتفق مع الأمراء والعساكر الذين بالحسا وما حولها ضد البرتغاليين ( حرر فى ٢٨ ذو الحجة ٩٦٦ هـ ) ١/١٠/١٥٥٩م (١٩) .

ويبدو ان مصطفى باشا لم يتحمل الصدمة فمات وخلفه فى قيادة العثمانيين كاتب الوثيقة وكان فى نفس الوقت واليا على قطر بالاضافة الى البحرين ( هكذا تقول الوثيقة رقم ٢١٣ ص ١٨ )فاستأنف القتال ثانية وجاءت الامدادات التى وصلت من هرمز لأمير البحرين وكانت تتكون من ٤٠٠ مقاتل وتذكر الوثيقة بعد ذلك أنه امكن الوصول الى اتفاق لانسحاب الجيش العثمانى بعد أن دفع ( على بك ) امير لواء القطيف للبرتغاليين ١٠ اقجات دراهم عثمانية كل أقجة تحتوى على مائة الف درهم عثمانى وبعض الخيول التى أعطيت للبرتغاليين وذلك فى شهر صفر سنة ٩٦٧هـ/ نوفمبر ١٥٥٩ م وعادة بقية الجيش العثمانى الى القطيف على السفن البرتغالية فى خمس دفعات بعد أن كابدوا الجوع والحصار نحو أربعة اشهر وبلغ عدد الجنود العائدين ٢٠٠ جندى من مجموع ١٢٠٠ جندى توجهوا مع مصطفى باشا فى بداية الحملة التى يفهم من سياق الوثيقة انها استغرقت ٦ أشهر (٢٠) .

وعاد السلطان يؤكد اقراره لمراد شاه على البحرين . وذلك فى وثيقة تقول :

بناء على ماعرضه الأمير ( جلال الدين مراد خان )حاكم بولاية جزر البحرين من الولاء للسدة العلية العثمانية وطلب أن تكون تلك الايالة فى حومة ولايته لذلك فقد قلدناها له وفوضنا اياها اليه ونفذنا كلامه يكون مستقر تلك الايالة فى يد الأمير جلال الدين مراد خان ومن بعده يقلدها أخوة ( شهاب الدين خان ابو النقا )ثم لابناء ( مراد خان )من بعده ومن عقبه على أن يسيروا بحكم البلاد بحكم الشرع القويم . حرر فى ٩٦٦هـ/ ١٥٥٨ م )

ونأتى لسنة ٩٨١ هـ/ ١٥٧٣ م فنجد أن أمير امراء الأحساء كتب رسالة الى دار السلطنة العثمانية ذكرت في الوثيقة رقم ٣٣ ص ٤٣ دفتر المهمة من أرشيف رئاسة الوزراء العثمانى

(١٩) وثيقة رقم ص ١١٤١ وانظر صفوت بك واقعة فى البحرين باللغة التركية ج ٣ ص ١١٤٠ ـ ١١٤٢ أوزبران ص ٥٣

(٢٠) السياسة الدينية للدولة العثمانية فى عهد القانونى ص ٢٤٩ و ٢٥٠ ووثيقة رقم ٢٣ مهمة دفترى ص ٦٤ حكم ١٣٤ مصورة من أرشيف رئاسة الوزراء العثمانى باسطنبول ـ وجنكيز أورهنلى وثيقة عن ( وقعة حربية فى البحرين سنة ١٥٥٩ م/٩٦٦ هـ رقم الوثيقة(E) ٣٠٠٤ مصورة من أرشيف قصر طوب كابو وترجمها د . أوزبران للانجليزية وترجمها الأستاذ أحمد اغراقجة للعربية وانظر صفوت ( وقعة فى البحرين ) ج٣ اسطنبول ١٣٢٨ ومعارك العثمانيين مع البرتغال فى خليج البصرة

←

صورة الصفحة الأولى من الوثيقة العثمانية الى مراد شاه مع ترجمة الوثيقة
استنبول ـ بازباكانليل أرشيفى ( الأرشيف الرسمى )
دفاتر الشئون العامة ، المجلد ٣ ـ ص ١٣٩

امر سلطاني الى مراد شاه حاكم البحرين :

انك ارسلت اشخاصا مرات عديدة الى بلاطنا السامي وعرضت علينا طاعتك لنا ومنحنا لك شهادة اثباتا بأننا أعطيناك البحرين كولاية واخطرنا بذلك جميع المحافظين المجاورين وسمعنا الآن بأن مصطفى باشا ، محافظ الاحساء قام بغزو البحرين دون اذن منا وانك اتخذت بعض الاجراءات ضده وكذلك حجز البرتغاليون بعض السفن العثمانية وقد طردنا مصطفى باشا من منصبه بسبب هذه الاعتداءات وعينا محافظا جديدا يحل محله . وعليك ان ترد الجنود الى المحافظ فى الأراضى العثمانية ونعاقبهم بما يستحقونه وهكذا يكون محافظونا وموظفونا فى الاحساء (والأقاليم الأخرى) مجمعين على تنفيذ ارادتنا حتى لا يتمكن العدو (البرتغاليون) من الحاق أضرار بتلك الأقاليم .

( ٢٨ ذى الحجة ٩٦٦ هـ )

باسطنبول وجاء فى الرسالة ان البحرين بها اكثر من ثلاثمائة قرية وأن ربحها السنوى سيكون أربعين الف فلورى وأن من السهولة فتحها ويسأل الصدر الاعظم كيف يمكن فتح البحرين ومتى وكم العدة اللازمة لفتحها ثم يطلب تقصى الأخبار عن عساكر البحرين ومحصولها .

والذى يلفت النظر فى هذه الوثيقة هو نظرة أمير أمراء الاحساء للبحرين مما يشير الى طمعه فى فتحها فاذا ربطنا هذه الرسالة بحمله مصطفى باشا السابقة فقد نخرج بما يدل على اتجاه عثمانى قديم فى ضم البحرين لاملاك الامبراطورية العثمانية وخرجنا أيضا بما يدل على أن مصطفى باشا عندما هاجم البحرين لم يكف ذلك دون علم السلطان وان تنصل من ذلك فيما بعد على أى الأحوال فان الوثائق فى هذه الفترة غامضة ولايعطى ماتم العثور عليه منها صورة كاملة لتفاصيل ماحدث .

ولكن بعد ١٠١١ هـ/ ١٦٠٢ م بدأ الضعف يدب فى دولة البرتغال فاحتلتها اسبانيا وانقرض جيل المغامرين الكبار وبدأت قوى بحرية تظهر فى الخليج هى قوة اليعاربة العمانيين وتوترت العلاقة بين الشاه عباس الصفوى والبرتغاليين حتى انه جهز جيشا للهجوم على بندر عباس . وبدأ الوجود الانجليزى يبرز فى مياه الخليج . ويذكر ابو البحر فى ديوانه أن وفدا سافر من البحرين لمقابلة الشاه عباس الصفوى وطلبوا منه المساعدة فى تخليصهم من البرتغاليين وقام اهل البحرين بالفعل بمحاصرة القلعة ثم احتلالها وقبضوا على جنود الحامية البرتغالية واستنجدوا بأمير شيراز الذى سارع لمساعدتهم .. وحاول البرتغاليون بعد ذلك استعادة البحرين الا أن محاولتهم باءت بالفشل وكانت هذه المحاولة هى اخر أحلامهم فى البحرين أما طردهم نهائيا من الخليج فقد احتاج عددا من السنين وصلت الى سنة ١٦٢٢ م/ ١٠٣٢ هـ وهذا ما سنعرض له في اعداد قادمة .

---

**لاوزبران طبع ١٩٦٣ ـ وترجمة حسين الداقوقى لتقرير الحملة العثمانية على البحرين اعداد أو رهنلى ص ٢١١ و ٢١٧ من مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية العدد ٢٤ الكويت ـ والاتراك العثمانيون والبرتغاليون فى الخليج العربى ص ٥٣ الى ٥٥**